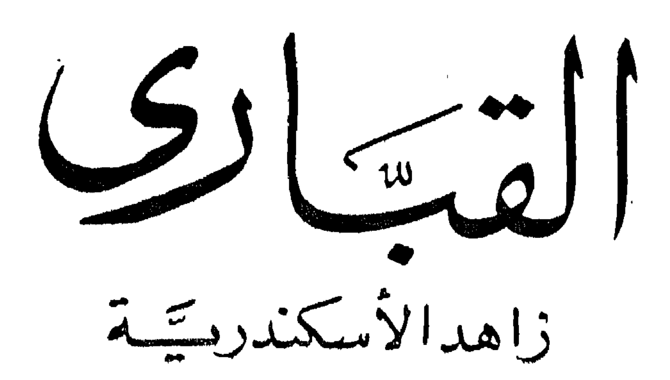


القبّاري

زاهد الإسكندريّة

تأليف : محمد محمود زيتون

الهيئة المحلية
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية



زاهد الأسكندرية

محمد محمود زيتون

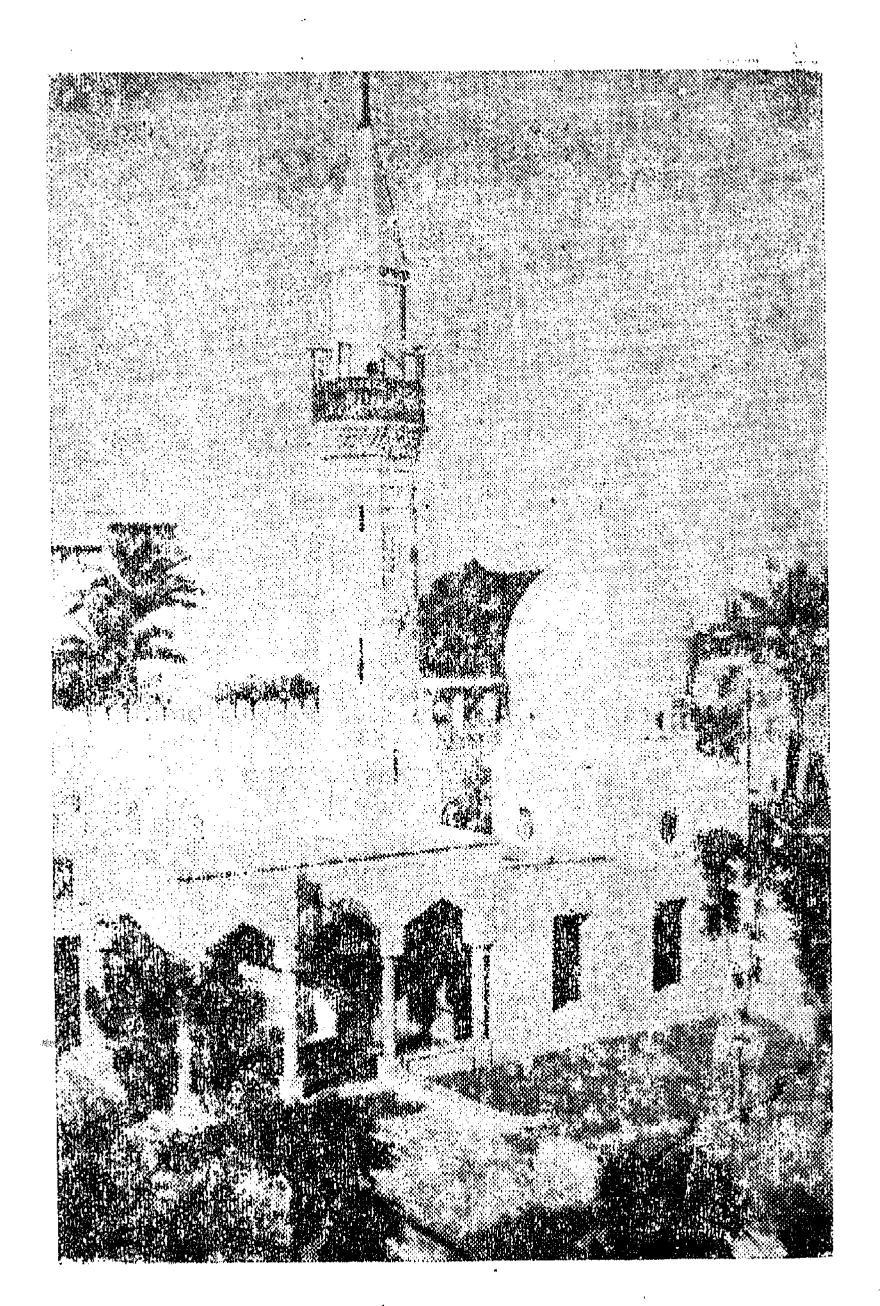
١٩٦٨



بسم الله الرحمن الرحيم

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

« قرآن كريم »



«مسجد القباری بالاسكندرية»

الدنيا ... والآخرة

[.. مَنْ كانَتْ الدُنيْـا نِيتَّه ، فرّق اللهُ عليهِ أمْرَهُ ،
وجَعَل فقْرَهُ بين عينَيْه ، ولمْ يأتِه من الدُنيْـا
إلاّ ما كُتِبَ له .

... ومَنْ كانَتْ الآخِرَةُ نِيتَّهُ ، جمعَ الله لَهُ أمْرَهُ ،
وجعلَ غِناه فى قلْبِه ، وأتته الدُنيا وهى راغمة .]

«حديث شريف»

كلمات

[قدمتُ الإسكندرية فوجدتُها كما قال تعالى (ذات قرار ومعين) مغمورةً بالعلماء ، معمورةً بالأولياء ، كالشيخ محمد القباري ، والشاطبي ، وابن أبي شامة] .

«سبط ابن الجوزي»

القباري . . .

[زاهد الإسكندرية وإمامها وقدوتها] .

«الزبيدي»

****

[كان صالحا قانتا منقطع القرين في الورع] .

«ابن العماد الحنبلي»

[ترك من الأثاث بعد موته ما يساوي خمسين درهما ، فبيع بعشرين ألفا] .

«ابن كثير»

[أودُّ لو كانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ على الخير] .

«القباري»

محتويات الكتاب

١ – ابن الأسكندرية
٢ – من بستان الى بستان
٣ – العش الهادىء
٤ – الحلال والحرام
٥ – اجواء واضواء
٦ – ملوك على الباب
٧ – فى الميزان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقلم السيد/محمد حمدى عاشور
محافظ الاسكندرية

الإسكندرية مدينة عريقة فى تاريخها الطويل، غنية بأمجادها وأبطالها وعلمائها وفنانيها الذين عرف العالم لهم ما أسدوه للإنسانية من روائع العلوم والفنون والآداب، فخلدوا للإسكندرية ذكرها، كما خلدتهم أعمالهم المجيدة، التى قدموها للإنسانية من حين إلى حين.

ومحافظة الإسكندرية حريصة منذ تطبيق نظام الحكم المحلى على إبراز هذا التاريخ، ليقف أبنـاء الجيل الجديد على ما قدمه الآباء والأجداد فى الصعيد المحلى، من تراث له عظمته وقيمته، فيعتزون بآثارهم، ويندفعون على خطاهم فى الطريق إلى المستقبل الزاهر المأمول، ومن هنا تتحقق أهمية التربية القومية، التى تهدف إلى خلق العزة، فى نفوس الناشئين، منذ نعومة أظفارهم، من خلال التزود بالمبـادىء السامية التى اشترك فى نشرها أقرب المقربين إلى بيئتهم وإن باعدت بينهم السنون الطوال.

ولقد اقتضت ظروف الإسكندرية التى تضم عددا وفيرا من الجمعيات الثقافية

أن تحقق لأبنائها المثقفين ما كانوا يصبون إليه من زمن طويل ، فأنشأنا فى العام الماضى (مجلس الثقافة بالإسكندرية) تمثلت فيه كافة العناصر المعنية بالثقافة حكومية وشعبية ، واستهدفنا بإنشائه تنسيق الجهود المبذولة وتوجيه الأنشطة نحو تخطيط ثقافى منظم يبرز طابع الإسكندرية ويرعى كل عمل جاد ليضيف إلى تراث الإسكندرية شيئاً جديدا ، عن طريق بعث الحركة الفكرية وإحياء ذكريات الخالدين من أعلامها ، والتجديد فى مجالات العلم والفن ، وتزويدهما بعناصر جديدة تحمل فى طياتها روائع هذا التجديد بما يكفل لها البقاء .

وإنه ليسرنى أن أجد صدى لاهتمامات مجلس الثقافة فى الوسط المحلى ، فقد انتعشت حركة التأليف والنشر ، ولاسيما فى الجوانب السكندرية ، مما يدعو إلى التفاؤل بنهضة ثقافية ، ترد إلى المدينة ما كان لها فى مختلف العصور من مفاخر ومآثر ، وتثير فى نفوس أبناء هذا الجيل ، اعتزازا وافتخاراً بما خلفه لهم السابقون .

ولقد استجاب الأستاذ محمد محمود زيتون لهذه الدعوة ، ووضع كتابه عن (القبارى زاهد الإسكندرية) بمناسبة ختام برنامج التعبئة الروحية لعام ١٩٦٨ فى مسجد هذا الشيخ الذى عرف باسمه ، بل والحى الكبير الذى كان يسكنه ويعمل فى بستانه ، وقد أغناه الله من فضله ، وعاش عابداً زاهداً ، ومع ذلك كان مشاركا فى المجتمع على نحو إيجابى سليم .

ويسرنى أن أكتب هذا التقديم لكتاب الأستاذ زيتون الذى يعنى بتراث

الإسكندرية وأعلامها فى التاريخ ، والذى وضع فى العام الماضى كتابه عن «الإمام أبو العباس المرسى » راجيا أن يمضى فى هذه السلسلة حتى النهاية ، حتى تتكون لدينا مجموعة كاملة تتناول هذا التاريخ المجيد فتعرضه بأسلوب سهل على ضوء مفاهيم العصر وتناقشه بمقاييس العلم ومناهجه .

وإذ أهنىء المؤلف على التوفيق الذى أحرزه بعد الجهد المضنى الذى بذله فى هذا الكتاب ، أرجو له ولجميع زملائه العاملين فى الحقل الثقافى مزيداً من النجاح حتى تكون الإسكندرية على مدى العصور منارة العلم والعلماء ، وكعبة القاصدين إليها فى طلب المعرفة.

وأملى وطيد أننا سنحقق كل مانرجوه للثقافة المحلية من ازدهار وانتشار سيراً على خطى زعيم نهضتنا ورائد قوميتنا الرئيس جمال عبد الناصر، رعاه الله وجعل النصر والتأييد حليفه ورائده .

محمد حمدى عاشور
محافظ الاسكندرية

أثناء طبع الكتاب ، وبعد كتابة هذه المقدمة الرائعة صدر قرار السيد الرئيس بتعيين السيد محمد حمدى عاشور وزيرا للادارة المحلية . هنيئاً لسيادته ماأحرزه من ثقة وما تركه فى الاسكندرية من مفاخر ومآثر .

فاتحة الكتاب

إذا أراد الله ببلد خيراً هيأ له الحاكم الصالح الذى يقيم ميزان الحق والخير، ويحض على البحث عن تاريخه، والكشف عن تراثه، والتنويه بأعلامه الأفذاذ، فى مختلف مجالات الحياة فى الماضى والحاضر.

وعلى مر العصور، ولاسيما فى العهد الإسلامى، سعدت الإسكندرية بعدد ضخم من الولاة والنواب، شهد لهم المؤرخون بعظائم الأعمال، فسجل لهم مآثرهم، ومن مفاخر الإسكندرية أن يكون على رأسها رجل صالح هو السيد محمد حمدى عاشور محافظها العادل النابه المصلح، الذى، منذ تولى أمورها سنة ١٩٦١ إلى يومنا هذا، وهو يرعى الفنون والآداب والعلوم، ويحرص كل الحرص على نشر ما اندثر من مفاخر الإسكندرية.

وما من مرة يزور فيها بيتا من بيوت الله، إلا ويأمر بإصلاح ما تهدم منه، أو توسيعه، كما فعل فى العام الماضى من زيادة ظاهرة فى جامع القبارى، فقوبل ذلك من الأهلين بالرضى والارتياح.

ولم ينس له أعضاء مجلس إدارة الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، يوم كان على رأس الاجتماع بهم فى العام الماضى، إشارته البارعة إلى أعلام الإسكندرية، والاهتمام بنشر تراثهم حتى استجبت بإخلاص لرغبته

الصالحة ، فوضعت كتابى (الإمام أبو العباس المرسى) فى العام الماضى بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور ٧٠٠ سنة على وفاة عالم الأسكندرية ، ورافع منارتها الثقافية فى القرن السابع الهجرى.

وفى هذا العـــام كان لسيادته لفتة أخرى ، توجه بها إلى (مجلس الثقافة) بالإسكندرية ، وهو رئيسه الأعلى، فشمل مشروع التعبئة الروحية فى الإسكندرية برعايته ، ووافق على نشر كتابين بهذه المناسبة عن أعلام المدينة ، فاخترت أن أكتب عن «القبارى زاهد الإسكندرية»

نهضت بهذا العبء وأنا أتهيبه منذ عدة سنوات ، وكنت قد اطلعت على كتاب مخطوط عنه بمكتبة المحافظة ، وطفقت أبحث عنه فى مظان البحث من كتب التاريخ والمعاجم ، وجمعت ما أمكن جمعـــه من المعلومات ، ثم انصرفت عن البحث والتنقيب حتى حلت مناسبة مرور ٨٠٠ سنة على مولد القبارى فى االعام الماضى ، ولكن النكسة العسكرية التى حلت بالعالم العربى قد حالت دون ذلك .

وعدت إلى القبـــارى والعصر الذى عاش فيه ، فوجدت أن الظروف التى أحاطت بالأمة العربية وقتذاك تشبه إلى حد كبير تلك الأيام التى نجتازها : فهناك الحملات الصليبية الضارية لاتنقطع ، وبنو أيوب وعلى رأسهم الملك الناصر صلاح الدين يجمع شمل المسلمين، لصدها وتخليص بيت المقدس ومصر والشام من براثنها ، ويمضى الجهاد فى عهـــد الدولتين الأيوبية والتركية ، والسيوف شاكية حتى تم لنا النصر .

واليوم يتآمر الاستعمار والصهيونية علينا بغية القضاء على نهضتنا الوثابة من أجل الحرية والوحدة والتقدم والاستقلال ودعم السلام، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وكان للإسكندرية خلال القرنين السادس والسابع دور ثقافى وحضارى جعل منها كعبة للقمم العالية من علمـــاء المشرق والمغرب ، جاؤا إليها على الأضواء

الساطعة التى انبعثت من مناراتها العلمية العالية ، وجعل منها فى الوقت نفسه هدفا للقراصنة الأوروبيين، وقد شنوا على ثغرها الباسم غارة تلو غارة ، فما وهن أهلها ولا استكانوا ، وصمموا على النصر فانتصروا .

وإذا كان العلماء فى الماضى قد قاموا بدورهم فى المعارك لسحق الصليبيين ، فقد حق للمثقفين الوعاة فى وقتنا الراهن أن يؤدوا رسالاتهم كاملة وعلى نحو جاد وشامل فى تعبئـــة الجماهير المعركة ، وكان هذا هو الدافع الحقيقى لبرنامج (التعبئة الروحيـــة) ، التى اتخذت مساجد الاسكندرية من شرقيها إلى غربيها ميادين لها على مدى خمسة أسابيع متتالية.

وكان ختام هذه الجولةالثقافية أسبوع القبارى ، ويرتبط عصرهأشد الارتباط بالتعبئة الروحية فى الماضى ، لصد غارات الصليبيين على دمياط وكان يحمل لواء هذه التوعية ، وحشد القوى للجهاد فى سبيل الله سلطان العلماء يومئذ وهو الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكان ممن التقوا بالقبارى فى بستانه بالاسكندرية.

وليس أقوى من الدعـــوة إلى الجهاد فى نفوس المواطنين ، ولا سيما إذا عرضت عليهم مفاخر ماضينا فى البطولات التى تحققت فى المعارك التى خضناها ، ومن هنا كان اختيار القبارى للكتابة عنه ، وهو الزاهد الذى عرف معالم دينه حق المعرفة ، وترفع عن مقابلة المـــلوك والأمراء ، فكانوا يقفون بالساعات الطوال على بابه يلتمسون الإذن بمقابلته،حتى إذا ظفر بهذا الحظ الملك الظاهر بيبرس وطلب منه أن يعرض حاجته ، لم يزد على أن نصحه بتعمـــير أسوار الإسكندرية والعناية بتحصينها ، فعرف السلطان الرجل قدره وأسرع لتحقيق رغبتـــه .

ولقد كان اعتمادنا فى كتابنا هذا ، على نسخة خطية لتلخيص كتاب مفقود عن القبارى، كتبه تلميذه قاضى الإسكندرية وخطيبها ونائبها ناصر الدين بن المنيِّر ،

ومع ذلك رجعنا إلى كل ماأمكن الرجوع إليه من المخطوطات والمطبوعات حتى وفقنا الله عز وجل إلى بعض المراد ،فا ستطعنا أن نعطى - لأول مرة فى التاريخ - صورة أقرب ماتكون إلى الوضوح والتكامل ، للرجل وعصره .

وكان من فضل الله علينا أن عثرنا على تاريخ الجد الأعلى للقبارى، وهو سكندرى مثله ، وقد سبقه إلى العالم الآخر بمائة وخمسين سنة ، وجدنا ذلك فى (معجم السفر) المخطوط النادر لمؤلفه الذى هو فى الحقيقة أشهر أعلام الاسكندرية، ونعنى به الحافظ السلفى ، ولم يكن السلفى قد أدرك القبارى الذى نحن بصدد الكتابة عنه ، وإن كان قد أدرك الجد البعيد ، ، عرفه عن قرب ، وكان ما كتبه عنه هو النص الوحيد الذى اعتمدنا عليه فى التعرف على أصل القبارى ، ولم يسبقنا إلى ذلك أحد إلى اليوم ، من جميع المؤرخين ، القدامى منهم والمحدثين .

وكان من فضل الله علينا أن اكتشفنا اسم القبارى كاملا فقد أجمع المؤرخون على أنه أبو القاسم وبالبحث وجدنا عند سبط ابن الجوزى فى «مرآة الزمان» أن اسمه «محمد» وكذلك ذكره أبو شامة فى «الذيل على الروضتين» وابن عزّم فى «دستور الإعلام».

ولقد حرصنا كل الحرص على أن نتخذ من المادة التاريخية التى تجمعت لدينا ركيزة للبحث العلمى ، فاتبعنا منهج التبويب المسلسل ، والتحقيق الدقيق لكل شاردة وواردة تتعلق بالموضوع ،على ضوء ماعندنا بحمد الله من ثقافة تجمع بين الإسلاميات والعلوم الإنسانية الحديثة ،ومع ذلك لم نشأ أن نبعد بالقارىء عن محور الكتاب خوفا من الاستطراد الممل.

وإذا كانت سيرة القبارى قد جرت على صعيد زمانى ومكانى واحد ، فقد بذلنا من الجهد أقصاه لإلقاء أقوى الأضواء على تلك الأجواء الضيقة والبعيدة، التى عاش فيها زاهد الإسكندرية مع الاهتمام على وجه خاص بمجريات الحياة إذ ذاك فى الإسكندرية ، حتى يتمكن القارىء من الخروج ، بعد قراءة هذا الكتاب

المتواضع بأن القبــارى كان جزءا من الإسكندرية ، اشتركت عوامل شتى فى تشكيل شخصيته، كما أسهم هو فى صنع تراثها، وصوغ أسلوب الحياة العامة لأجيالها المتوالية، بالكلمة الطيبة والسيرة الحميدة . فكان قدوة وإماما.

وكان تقييم أفكار القبارى من أهم الموضوعات التى حرصنا على إبرازهـا فى هذا الكتاب ، وصولا بالبحث إلى التعرف على المكانة العلميـــة التى يستحقها القبارىء ، من الثقافة المحلية والقومية والإنسانية جميعا.

وحتى نشرك القارئ معنا فى متابعة الجهود التى بذلناها ، وضعنا قائمة بأهم المراجع التى استعنا بها فى البحث عن معالم شخصية القبارى والتعرف على أبعاد ثقافته، وتطور أفكاره عبر التاريخ . من خلال المطبوعات، والمخطوطات الوثيقة.

والله أسأل أن يكون هذا الجهد خالصا له وحده ، إحياء لأمجاد الأوفيـاء لربهم ووطنهم والتاريخ ، والله ولى التوفيق ؟

المؤلف

محمد محمود زيتون

الإسكندرية: أغسطس سنة ١٩٦٨

— ١ —

ابن الإسكندرية

من هو القبـارى

هو أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى القبارى السكندرى المالكى، ولد بالإسكندرية سنة ٥٨٧هـ وتوفى بها فى ٦ شعبان سنة ٦٦٢هـ عن خمسة وسبعين عاما، وأكد أبو شامة تاريخ وفاته بإخبار مباشر له من القاضى عبد المجيد بن الخليل، ودفن بظاهرها أى خارجها من الجهة الغربية المسماة الآن بحى القبارى وله ضريح ومسجد مشهوران .

المصادر قليلـة :

اشتهر القبـارى بالزهد فى الدنيـا على نحو فريد فى نوعه، وغلب عليه الورع والتقوى، وسلكه مؤرخو التصوف فى تراجمهم، أما ابن خلّكان فى «وفيـات الأعيان» فلم يشر إليه بترجمة فى قليل أو كثير، مع أنه توفى قبل وفاة ابن خلكان بتسعة عشر عاما لأن ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ لم يؤرخ لمن تأخرت وفاته عن سنة ٦٥٥ هـ .

ومن المؤرخين القلائل الذين ذكروه باسم (محمد القبارى) أبو شامة فى «الذيل على الروضتين» فقال : «الشيخ محمد المعروف بالقبارى»، وقد التقى به أبو شامة سنة ٦٢٨ هـ بالإسكندرية، كما التقى به من بعده سبط ابن الجوزى، عند زيارته للإسكندرية سنة ٦٤١ هـ فى عهد الملك الصالح، إذ وجدها على حد قوله «مغمورة بالعلماء، معمورة بالأولياء كالشيخ محمد القبارى والشاطبى وابن أبى شامة» وقال ابن عزّم التونسى (-٨٩١ هـ)، هو «أبو القاسم محمد بن منصور»، أما صاحب (مرآة الجنان) فقد كتبه محرفا هكذا (القارى) بدلا من (القبارى) فقـال بصدد

المتوفين سنة ٦٦٢ هـ - وهى سنة وفاة القبارى - : «وفيها توفى القبارى أبو القاسم ابن المنصور الاسكندرانى».

وقال صاحب « دول الإسلام » : « مات القدوة الولى الشيخ أبو القاسم بن منصور القبارى بالاسكندرية ».

وليس أدل على شهرة القبارى عند أهل القرن التاسع الهجرى من قول ابن عزم : « القبارى الاسكندرانى الإمام الربانى الأوحد شيخ الوقت زهداً وصلاحا» وأشار إلى أن ابن المنير « جمع له ترجمة مفردة » وعلق على ذلك رمضان حلاوة - وهو سكندرى من أهل القرن الماضى - فقال « وهو مدفون بظاهر الإسكندرية مشهور مقامه يقصد للبركات ».

وفيما عدا أبى شامة وسبط ابن الجوزى وابن عزم فقد أجمعوا على اسمه (أبو القاسم بن منصور بن يحيى القبارى السكندرى) .

وفى نظرى أن بدء الترجمة بـ (أبو القاسم) أى بالكنية ليس مألوفا فى علم التراجم ، وإنما المألوف أن تردف الكنية بالاسم ، وأبو القاسم كما هو معروف كنية لاسم محمد ، وعلى رأس المحمدين جميعا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فقد كانت كنيته (أبو القاسم) ، وإن كان غرس الدين خليل قد ذكره هكذا (قاسم القبارى) .

وعلى ذلك فاسمه (محمد) وكنيته (أبو القاسم) وأبوه (منصور) وجده (يحيى) ولقبه (القبارى) وبلده (الإسكندرية)، التى لم يبرحها قط طول حياته إلا للحج .

وعلى الرغم من قلة مصادرنا عنه ، فإن تلميذه القاضى ناصر الدين بن المنير السكندرى - بدافع من الوفاء لأستاذه - قد حفظ لنا حكايات ونوادر عنه ، سماها « مقامات سيدى القبارى » وقد ضاعت هذه المخطوطة الأصلية ، ولم يعد لها وجود، لولا أن تمكن أحمد بن عبد الكريم حمزة الشاذلى السكندرى من استنقاذ

صورة منها ضاعت هى الأخرى ، ولم يبق منها إلا نسخة ملخصة مخطوطة بمكتبة الإسكندرية ، اعتمدنا عليها كل الاعتماد فى الكشف عن معالم شخصية الرجل ، وأطوار حياته والتعرف على حقيقة زهده الذى انفرد به عن سائر الزاهدين .

صدق المؤرخون :

ومن حسن الحظ أن الذين تناولوا سيرته لم يختلفوا فيما بينهم على تاريخ وفاته ، ولكنهم لم يذكروا تاريخ ميلاده باليوم والشهر والسنة ، فيما عدا ابن المنير الذى ذكر أنه ولد سنة ٥٨٧ ﻫ وأضاف أنه توفى عن ٧٥ سنة ، واكتفى المهتمون منهم بسيرته بقولهم إنه مات عن خمس وسبعين سنة .

طلع القــــرن السابع الهجرى ، والقبارى صبى لا يزيد على الثالثة عشرة من عمره ، فقد ولد قبل وفاة المغفور له صلاح الدين الأيوبى بعـامين اثنين ، وعلى ذلك يكون القبارى من أهل القرن السابع الحافل بجلائل الأعمال، النابض بحيوية ذهبية ، لم يعرف لها مثيل فى تاريخ ثقافـــة الإسلام وحضارته ، وقد اشترك فى صنعها وصوغها عدد ضخم من العلماء فى الشرق والغرب على السواء ، متجاوبين فيما بينهم ، على الرغم من بعد الشقة ، وصعوبة الاتصال واللقـاء ، فى وقت كان فيه أى حدث يقع فى أى بلد إسلامى، يلقى صداه فى سائر الأمصار حتى لقد حرص أبو شامة فى «الذيل عن الروضتين» على أن يقول عن القبارى ، إن خطيب جامع دمشق صلى عليه بالناس صلاة الجنازة عقيب صلاة الجمعة يوم ٧ رمضان سنة ٦٦٢ﻫ أى بعد وفاته بشهر لأنه – كما يقول أبو شامة – «شيخ مشهور بالورع والزهد بالإسكندرية، وكان يخدم بستانه بنفسه».

كما أن الأمير الذى تولى حكم الإسكندرية ، وحرص على لقاء القبارى ثانى يوم وصوله إليها، كان يحكى لأهل الشام ومصر مارآه وما سمعه عنه.

رجل كالقبارى : يموت بالإسكندرية ، ويصلون عليه بدمشق ، ويتحدث الأمراء والولاة عنه فى مصر والشام ، إعجابا به ، وتعجبا من أحواله ، لاشك أنه من العظمة بحيث كان معروفا لدى أهل الشام عامة ، والعلماء منهم خاصة ، ثم يذكره باهتمام مؤرخان كبيران كأبى شامة وابن واصل اللذين عنيا كل العناية بتاريخ الدولتين مصر والشام فى القرن السابع الهجرى .

أصل التسمية

بحث فيلولوجي

« الأسماء لا تعلل » . . .

هكذا ورثنا هذه القاعدة عن أساتذتنا المحدثين والقدامى، على مر العصور، ومع ذلك نرى لزاما علينا أن نكشف لأبناء هذا الجيل وما يليه من أجيال، عن أصل تسمية صاحبنا بالقبارى، ذلك أن من بعض مميزات المنهج العلمى الحديث، مهما يكن مجال البحث، شق الطريق إلى الحقيقة، فلا نكتفى بالسير على خطى الأقدمين، وعيوننا مغمضة، وأيدينا ممسكة بعكاكيزهم، فى تقليد أعمى لما نقلوه إلينا، دون فحص أو تمحيص، وذاك مالا نرضاه لهم ولأنفسنا .

ما هو القبار ؟

أما القبارى فلم نسمع من قبله أو من بعده أحداً من أرباب الثقافة قد تسمى بهذا الاسم، لا فى مصر ولا فى غيرها، فهو المتفرد بهذه التسمية دون سواه، ومن العجب أن ابن المنير صاحب ترجمته قد ذكره أحيانا فقال (الكبارى) بالكاف، دون القاف، وفى موضع آخر نراه يقول « وكان رحمه الله تعالى - أى القبارى - يقول، على سبيل المباسطة، « ابتليت ببضاعة لها زبون واحد يشير إلى (الكبار)، لأنه كان لا يعامل أهله، وكانوا عددا قليلا . وكان يختار منهم

واحداً لمعاملاته ، ويجعله سمسار نفسه ، ويعطيه أجرة السمسرة ، ويسامحه فى الثمن عند الوزن على عادته ، وكان يقول : هذه صدقات مستترة».

وقال رمضان حلاوة «أورده - أى القبارى - صاحب القاموس فى القاف ، ولم يبين نسبه وكذا الشُّمُنّى وأورده - أى الشمنى - فى الكاف أيضا » *

كما أن مطرز ستر ضريحه قد حرص على كتابة اسمه أيضا هكذا (الكبارى).

وأغلب الظن أن القبـارى- على وزن شدّادى' بفتح القاف وتشديد البـاء' نسبه إلى (القبار) وهو ثمرة كان يعرفها القبـارى أشد المعرفة فى عصره ، حتى لقد ورد ذكرها مراراً فى كتاب ابن المنير عنه إذ يقول عن شيخه القبـــارى « . . وذلك أنه لما انقطع فى القصر باع الدابة التى من شأنه قنيتها ، وضم ثمنها إلى ثمن ثمرة القبار ففاق ذلك على ثمانمائة درهم فزكاها»

وفى موضع آخر يروى عنه ابن المنير هذه العبارة :

« استرحت من السكة - العملة النقدية المسكوكة بدار الضرب - فقد علم الله أنى لو وجدت من يعاملنى بالقبار ونحوه من الثمار أجعله ثمنا للشمونات من غير توسط السكة لما فعلت إلا ذلك» .

وتحدث عنه صاحب «شذرات الذهب » فورد اسمه محرفا هكذا: (القبادى) بالدال بدلا من الراء وأسقط اسم جده (يحيى) ثم قال : (الزاهـــد) واستطرد قائلا :

« كان صالحا قانتا منقطع القرين فى الورع وكان له بستان يعمله - أى يعمل فيه - ويتبلغ منه -أى يتعيش منه بما يكفى معاشه- وله ترجمة مفردةجمعها ناصر الدين بن المنير» * *.

---

* كلمة الشمنى غير كاملة فى الأصل وينقصها النون والياء وأكملناها من عندنا .

** شذرات الذهب : الجزء ٥.

وإذا جمعنا بين كل هذه النصوص التي ذكرها ابن المنير وابن العماد الحنبلي وغيرهما، تبين لنا أنه كان يزرع في بستانه فيما يزرع ثمر (القبار) ، ويبيعه لتاجر واحد دون سواه على سبيل المقايضة ، دون التعامل بالسكة أي النقود المسكوكة .

وبالرجوع إلى قواميس اللغة العربية للبحث عن مادة (قبر) التي هي أصل التسمية فيما نظن ويظن الناس ، لانجد من مشتقات الكلمة ما يفيدنا في التعرف على أصل تسميته بالقبارى ، فلم يكن الرجل في حياته يقبر الموتى ليسمى قباراً أو لحادا ، كما أنه لم يكن ممن يؤثرون زيارة القبور أو سكناها ، إذن هذه النسبة التي انفرد بها زاهد الإسكندرية لا ترجع إلى بلد أو حرفة أو أسرة أو غيرها ، وإنما ترجع إلى (ثمرة القبار) .

وفي قاموس النباتات أن (الكبر) بفتح الكاف والباء نبات ينبت في البرسيم ، وبالرجوع إلى ما جاء في « لسان العرب » و « القاموس المحيط » نرى أن القبار (على وزن الرمان بضم القاف وتشديد الباء المفتوحة) هم قوم يجتمعون لجرّ ما في الشباك ، وهي كلمة عُمانية. قال العجاج « وكأنهم تجمعوا قبارا ». وفي المحيط أن القبار أيضا موضع بمكة وأنه سراج الصيد في الليل . وليس ثمت صلة بين هذا كله وبين القبارى .

محاولة فاشلة :

وقد حاول الدكتور بوتى Botti أمين المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية ـ خلال عملياته في التنقيب عن آثار الاسكندرية التي استغرقت منه عشر سنوات ـ أن يجد علاقة بين (القبارى) و (القبور) فلم يصل إلى شيء ذى بال .

قسم بوتى المدينة إلى خمسة أقسام ، آخرها يقع في الجهة الغربية ، وأطلق عليه اسم (القبارى) أو (نكروبوليس) ، وقال فيما قال عن هذا الحى ـ الذى

أطلق عليه (استرابون) قديما هذا الاسم - إن هناك قلعة قديمة ، وإن القبارى ترجمة لكلمة (المقابر) ، فإذا كان سيدى جابر فى الشرق : فإن القبارى أو منطقة المقابر فى الغرب ' وكما أجهد بارتى Parthey نفسه فى البحث عن كلمات متقاربة فى اللاتينية مع كلمة القبارى، فقد باءت جهوده بالفشل ' كما فشل من بعده بوتى الذى رأى بنفسه مسجد القبارى هناك .

وليس أدل على ذلك من أن بوتى اختلق اسما للقبارى هـــو (سيدى شمس القبارى) ، وبنى على هذا الخطأ ما هو أفحش منه إذ خطر بباله وجود معبد قديم يسمى (شمس الأموات) أو (رع آتوم) أو (الشمس الغاربة) خلف الجبل المقدس فى الغرب مما يرتبط فى ذهنه بوجود (مقبرة القبارى فى المكس) . وهى التى تغرب على الموتى وتسمى (القبارى).

ويمضى (بوتى) بعد ذلك فى تعقب تاريخ هذه المنطقة فيذكر ما كان فيها قديما من بساتين ومزروعات خاصة بصنع الأكاليل لتزيين المقابر والأضرحة' وصناعة الدمى من العاج والصور الجنائزية والموميات والأكفان والجرار والأباريق ومذابح القرابين.

وعلى الجملة فإنه «فى هذه المدينة الآهلة بالسكان كان القبارى حيا من الأحياء تدب فيه الحركة ولا سيما فى مواسم معينة من الشهر وفى أعيـــاد كل من اليهود والإغريق والمالطيين والعرب على السواء ' مما كان سببا فى إنعاش حى القبارى» وقد قسمه إلى أربعة أقسام هى: القبارى وأم قبيبة وسوق الورديان وباب العرب.

وعلى الرغم مما ورد من أخطاء هذا العالم الأثرى الذى ساير محمود باشا الفلكى فى محاولته السابقة عليه للتقريب بين (القبارى) و(المقابر) فإننا نستطيع الوقوف على السر فى وجود القصر أو الدير الذى كان يسكنه القبـارى ' والذى كان يعتبر أثراً قديماً جداً من عهد البطالمة على الأقل ، واتخذ هذا الحى ليكون (مدينة الأموات) ' فاختلطت تماما (التيبور) باسم (القبارى) فى ذهن عالم الآثار .

هذا هو جده :

ونعود فنتساءل : هل ثمت أحد من أهل الاسكندرية أو غيرها كان قد تسمى بهذه التسمية (القبارى) قبله ؟ فقد يكون هناك بصيص من الأمل يهدينـــا إلى التعرف على أصل الرجل من قريب أو من بعيد .

ولقد رجعنا إلى كافة ما لدينا من المعاجم والتراجم ، المخطوط منها والمطبوع ، فلم نقف على أثر لاسم القبارى إلا فى (معجم السفر) لإمام الاسكندرية الحافظ المحدث أبى الطاهر السلفى الذى قدم إلى الإسكندرية سنة ٥١١ هـ وعاش بها حتى توفى ودفن بها سنة ٥٧٦ هـ ، وهو مخطوط نادر .

قال السلفى على طريقته فى هذا المعجم :ـ

« أخبرنى بالاسكندرية أبو محمد عبد الكريم بن أحمد بن القاسم بن العباس بن أبى عجينة القبارى المعروف بالخلقانى المؤذن والشيخ المعمر ، وكان يقال إنه ابن ١٢٠ سنة ـ وهو شيخ مشهور بالاسكندرية بالكبر وتوفى سنة ٥١٢ هـ » . ويستطرد السلفى قائلا :

« وحضرت جنازته وصليت عليه ، وكان مالكى المذهب ، وقد كان مع كبر سنه يقصدنى إلى أن مات ، محمولا كأنه قفة ، وفى منزلى قرأت عليه ما قرأت ، وكنت أداعبه وأقول : أنت مكبر معبر مجبر ، فيبتسم ، وقد ذكر لى أنه رأى القاضى أبا مطر المعافرى وأبا عمران الفاسى ، لما قدم الإسكندرية حاجا » .

وحكى السلفى عنه أنه بقى ٦٣ عاما لم يأكل من اللحوم إلا لحم الصيد ، ولم يشرب لبنا أو أكل جبنا قط تورعا منه ، وكان يصطاد بنفسه ومن قـــوته ومن القبار المباح كما أنه كان بارعا ومصيبا فى تفسيره الأحلام ، مع أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقد سمع على أبى العباس الرازى كثيراً .

ومن هذ النص الوحيد الذى وفقنا الله إليه ـ وهو سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

يتبين لنا أولا أن هذا الرجل المسمى بالقبارى والذى بلغ من العمر ١٢٠ سنة كان من أهل الاسكندرية وتعرف عليه السلفى بها بعد قدومه ، خلال سنة على الأقل ، فهو قطعا من أسلاف القبارى ، ومع أنه كان أميا كما يقول السلفى إلا أنه على علو سنه كان يطلب العلم ويستمع إلى العلماء ، وإذا كان قد توفى فى هذه السن العالية سنة ٥١٢ ﻫ فإن بينه وبين شيخنا القبارى ١٥٠ سنة ، إذ توفى سنة ٦٦٢ ﻫ وهذه الفترة الطويلة من الزمن قد جاءت إلى الدنيا بأجيال متتالية من أسرة القبارى ، اشتهر منهم زاهدنا وحده ، لعدم وجود أحد منهم عرف عنه أنه طلب العلم ، أو أخذ عنه أحد علماء الإسكندرية ، وإلا كان من حقه ومن شهرته أن يذكره الذاكرون فى تراجمهم ومعاجمهم .

بالوراثة :

ولعل فيما ذكره لنا السلفى ما يدل على الأصل الحقيقى لاسم القبارى ، فقد كان جده – وكان على مذهب مالك مثله – من أهل الورع ، فكان لا يشرب اللبن ولا يأكل الجبن ولا من اللحم إلا الطير الذى يصطاده بنفسه ، ويأكل أولا وأخيراً من (القبار المباح) وهو ثمرة من الثمار النادرة ، وإليها كانت النسبة ، ثم انتقلت هذه الخصال بالوراثة إلى صاحبنا ، وزاد عليها – كما سنرى فى سلوكه الشخصى – فضيلة الاحتياط والتحرز فى طلب الحلال الطيب المباح ، وفى تفسير الأحلام ولا عجب فقد كان بالاسكندرية من المعاصرين للقبارى الجد الأعلى ، زاهد كبير هو عليان الزغبى العامرى ومات بها سنة ٥١٤ وله مواقف مشابهة فى الحلال والحرام ، سنتحدث عنها فى الوقت المناسب .

كتاب عن القبارى

كتابنا هذا عن القبارى هو أول كتـــاب من نوعه ، لم يسبقنا إليه أحد ؛ ولم يكن إحجام المؤلفين عن الكتابة عنه إلا بسبب قلة المراجع وصعوبة الحصول عليها إن وجدت ؛ ولا شك أن الإشارات العابرة التى خلفها لنا أصحاب التراجم خلال ما سجلوه فيها ، بمناسبة الوفيات ، لا يمكن أن تفى بالموضوع ، ولا تكفى لإلقاء الضوء لكشف معالم شخصية هذا الرجل أو ذاك ، وإنما هى مجرد دلائل على الطريق المجهول ، كما ســنرى ، خصوصا وأن بعضهم ينقل عمن سبقه ، فلا يأتى بجديد وهو الأغلب والأعم .

مخطوط ضائع :

أما المصدر الرئيسى والوحيد عن سيرة القبارى فهـو ذلك المخطوط الذى اطلعنا عليه والموجود بمكتبة محافظة الاسكندرية تحت رقم ١٦٨٥ ب . ولابد من وقفة عند هذا المخطوط الذى عنوانه « هذا كتاب مقامات سيدى أبو القاسم ابن منصور بن يحيى المالكى الإسكندرى المعروف بالقبارى المتوفى فى شعبان سنة ٦٦٢ لأحمد بن عبد الكريم حمزة اختصره من تأليف سيدى ناصر الدين بن المنير رضى الله عنه وأرضاه آمين » .

وناصر الدين بن المنير (بضم الميم وفتح النون وكسر الياء المشددة) ـ كما نعلم وكما سنتحدث عنه ـ بوصفه راوى سيرة سيدى القبارى وتلميذه وصديقه ومعاشره ، قد توفى سنة ٦٨٣ هـ ودفن بالاسكندرية، وله بها قبر يزار ومسجد كبير.

هذا هو المؤلف ،أما ابن حمزة السكندري الذى قام بتلخيص الكتاب فهو الشيخ أحمد بن حسن بن عبد الكريم حمزة الشاذلى السكندرى أحد علماء الاسكندرية صاحب مخطوطة مفقودة عنوانها « الرياض الشذية فى مناقب بعض أفاضل الاسكندرية » وعلى هذه المخطوطة كان اعتماد الأستاذ حسن قاسم فيما كتبه عن بعض أعلام الاسكندرية بمجلة (هدى الإسلام) فى أعداد ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، وبكتابه (المزارات المصرية) .

وينبغى أن نبادر إلى تصحيح سنة وفاة ابن حمزه فهى ليست سنة ١٢١٢ كما ذكر حسن قاسم وإنما سنة ١٣١٢ إذ أن خاتمة المخطوطة تنص على هذه العبارة:

« ما أمكننى نسخه ونقله من النسخة التى وصلت إلى ، وذلك فى حادى عشر شوال عام ثمان وثلاثمائة وألف ، وإن يسر المولى لى الحصول على نسخة صحيحة أنقلها بالتمام والحمد لله على كل حال . تمت »

تعريف وتلخيص :

وأغلب الظن أن المؤلف وهو ابن حمزة السكندرى قد توفى بعد تلخيص كتاب ابن المنير عن القبارى بأربعة أعوام أو نحو ذلك، فالتحريف فى الرقم ، والرجحان للعقل ، إذ أن الفرق بين الخطأ والصواب الذى نرجحه ، هو مائة عام ولا يأتى مثل هذا الخطأ إلا عن المطبعة .

ثم يأتى دور الناسخ الذى انهى إلينا الكتاب ملخصـــا بخط يده ، فإذا به حسين بن محمد بن رجب أحمدين ، السكندرى بلداً ، والمالكى مذهبا ، وقد فرغ من كتابة هذه النسخة من الأصل، التى هى بخط المؤلف رحمه الله تعالى ،وذلك فى

يوم السبت المبارك الموافق إحدى (كذا) وعشرين مضت من شهر محرم الحرام افتتاح سبع وثلاثين وثلثمائة وألف من هجرة من له المجد والشرف »

ثم قوبلت هذه النسخة وروجعت على نسخة الأصـــل وصححت بعد هذا التاريخ بيومين اثنين، وأخيرا تنتهي المخطوطة بقصيدتين للشيخ عبدالغني النابلسي في التصوف والعشق الإلهي ؛ وليس فيهما أية إشارة إلى القباري من بعيد أو من قريب ، ومطلع الأولى منهما :

وجود كوني من تجلي الجواد ... هذا عطاء ماله من نفاد

والأخرى مطلعها :

ما الغـير إلا بابه المغلق ... وكلنا مفعوله المطلق

وورق المخطوطة حديث كذلك ، ولا يمكن أن يمتد بها الزمن إلى أبعد من إحدى وخمسين سنة وفق ما حـدد ذلك ناسخ الـكتاب ، كما أن الـكتاب الأصلي الذي وضعه ابن المنير بحاله ـ قبل أن تمتد إليه اليد بالتلخيص ـ كان موجودا منذ ثمانين سنة ثم اختفى .

وإذا رجعنا إلى مقدمة المخطوطة رأينا أنفسنا أمام الحقائق الآتية :ـ

أولا تبدأ المقدمة بالحمدلة الآتية :

« الحمـــد لله الولي الحميد ، المبدىء المعيد الفعـال لما يريد . . . » الخ

ثم تتلوها الفقرة الآتية مباشرة : «وبعد فيقول الفقير إلى ذي العظمة والعزة أحمد بن حسن بن عبد الـكريم حمـزه الشاذلي السكندري ، وقاه الله من كل باغ ومفتري : قد كلفت قبل التكليف بحب الصالحين، وشغفت حين أنشئت بالبحث عن أخبار المتقدمين ، سيما من توارت شموس جمالهم بثرى الإسكندرية . وكان أكثر مايجول بأفكاري الوقوف على أخبار سيدي أبي القاسم منصور القباري ، لأنه ألقى حبه في قلبي ، وفي أغلب الأوقات أزوره وأتوسل به إلى ربه وربي . . . »

ثانيا : استطرد ابن حمزه السكندري في الحديث عن مواصلته البحث عن

أخبار القبارى فى مؤلفات الصوفية فوجد المؤلفين لايذكرونه إلا باختصار فنقل ماوصل إليه عنه مما ذكره صاحب القاموس والمناوى ، والسيوطى فى « حسن المحاضرة » وابن علان المكى الصديقى فى كتابه « الوجه الصحيح فى ختم الصحيح »

ثالثا : يهتم ابن حمزة بما ذكره السيوطى من أن ناصر الدين بن المنير قد أفرد للقبارى ترجمة بتأليف فصار يسأل ويسأل عنه ، حتى كانت قدماه ، وفى النهاية ساقه الله إليه ويسره له ، وذلك فى أول شهر رمضان سنة ثمان وثلثمائة وألف ، ثم يقول « غير أنى وجدت هذا التأليف قد حرفه الناسخ أى تحريف ، فلخصت منه هذه العبارة القصيرة ، والجملة اليسيرة ، ولم يمكنى نقله كله ، لما قدمت لك نقله» .

وبهذا التحريف وذلك التلخيص ، ضاعت علينا فرص كثيرة كان فى الإمكان أن نفيد منها كثيرا ونعتمد عليها فى التحليل والنقد .

رابعا . بعد ذلك مباشرة يبدأ ناصر الدين بن المنير كتابه بالتلخيص الذى اختاره ابن حمزه السكندرى ، ويمضى فى عمـــله هذا إلى النهاية دون تصنيف أو تبويب وعلى غير ترتيب علمى فى ترجمته ، وقد يقدم ويؤخر معلوماته ، حسبما مايروقه هو ، وجل عنايتـــه هو ذكر كراماته ، وملامح شخصيته وحكاياته ونوادره ، أما الأحداث فلا يعنى بتواريخها أو تحليلها .

الشهرة المظلومة :

وإذا كان ماوصلنا من هذا المخطوط وما ورد فى خلاله من المراجع هو الطليعة الأولى لمصادرنا عن القبارى ، فإننا لم نكتف بها ، وإلا لحقت بنا وصمة التقليد ، وباء عملنا هذا بالنقل المجرد من مادة مخطوطة إلى مادة مطبوعة ، ولكننا جئنا فى كتابنا الجديد عن القبارى بما لم يسبقنا إليه أحد ، من حيث التوسع فى

الكشف عن مادة تاريخية تضيء لنا الطريق إلى بيئته وحياته وسلوكه وتقييم زهده بمقاييس معلوماتنا ودراستنا التخصصية في التصوف وانتهاج الطريقة العلمية في التبويب والمقارنة، بأسلوب مألوف في هذا العصر، دون تعمق في اللغة أو ابتذال .

وحسبنا أن نرجع إلى مظان الثقافة السكندرية وحضارتها ، في الفترة التي عاشها القباري ، ولله وحده الحمد والمنة أن وفقنا لأول مرة في التاريخ إلى أصل تسمية القباري والوصول إلى جده الذي توفي قبله بمائة وخمسين عاما، وفي الوقت الذي انفردنا فيه بهذا الكشف التاريخي النادر ، لم يتمكن غيرنا من تزويدنا بشيء عمن سبقه أو لحقه، من السلف والخلف على السواء ، بل لقد أخطأ بعضهم فنسب إلى القباري قولا لم يقله .

وعلى الرغم من العظمة التي بلغها القباري . فإن شهرته ظلت مثار تردد عا طويلا من الزمن ، فلم تحظ من أقلام عدد كبير من المؤرخين إلا بإلمامات قصار لا تسمن ولا تغني من جوع . مثال ذلك ما قاله المرتضى الزبيدي في (تاج العروس) بصدد إسهامه في اشتقاق مادة (قبر) : « وأبو القاسم منصور — ويقال أبو القاسم بن منصور كما في التبصير للحافظ — القباري . كشدادي — زاهد الاسكندرية وإمامها وقد أسن » . وهذا التقريظ الطيب على إيجازه من الزبيدي، كان يقابل بحق عند غيره إما بما هو أضيق أو بما هو أوسع .

وليس أدل على شهرة القباري على ألسنة معاصريه من تلك العبارة التي ذكرها ابن المنير وهو بسبيله إلى ختام كتابه فيقول :

« ولما بلغت إلى هذا المنتهى من كتابة حكايات الشيخ رحمه الله تأملت المتوقع من حكاياته ، فرأيته زائدا على ذلك لأنني ما اجتمعت بأحد ممن اجتمع به رحمه الله من بلدي أو قادم إلا وحكى لي حكاية أو اثنين (كذا) فصاعدا ، كل حكاية

لا تشبه الأخرى إما من كراماته وإما من استقامته وإما من حكمته وإما من نصيحته ، فعلمت أن الله إذا فتح على عبده بابا من أبواب الخير لم تحصر عطاياه ، ولم تنفد مزاياه ، فرأيت الاقتصار على هذا المقدار ».

وعنوان الكتاب الذى وضعه ابن المنير فى ذاته يدعو إلى العجب فقد ذكر كل من اليافعى فى «مرآة الجنان» وابن عزم فى «دستور الإعلام» والسيوطى فى «حسن المحاضرة» وابن العماد الحنبلى فى «شذرات الذهب» . أن ناصر الدين ابن المنير قد أفرد للقبارى ترجمة ولم يذكر أحد منهم عنوان هذا الكتاب بل إن ابن عزم ثم الكتبى فى (فوات الوفيات) والسيوطى فى «بغية الوعاة» والزبيدى فى (تاج العروس) لم يشيروا إلى أن ابن المنير قد وضع كتابا عن القبارى ، عند ذكرهم مؤلفات ابن المنير ، غير أن الداودى فى «طبقات المفسرين» قال : «وله مناقب الشيخ أبى القاسم القبارى» .

مقامات .. أو مناقب ؟

ثم إن عنوان المخطوط الذى وصل إلينا ملخصه بقلم ابن حمزة السكندرى فريد فى نوعه ، فقد جاءنا على أنه « مقامات » وبالضبط على النحو التالى :ـ

« هذا كتاب مقامات سيدى أبو القاسم (كذا) بن منصور بن يحيى المالكى الإسكندرى المعروف بالقبارى المتوفى فى شعبان سنة ٦٦٢هـ ».

وكلمة « مقامات » هذه تلفت نظر كل دارس للتصوف وأحوال المتصوفين، فهى أحد مصطلحاتهم ، إذ لكل منهم مقامات وأحوال عرف بها ، سواء كان مجدداً أو مقلداً ، وأقرب ما تكون كلمة المقامات هذه من المكانة التى يصل إليها أحدهم أو الدرجة التى يبلغها من الحضرة الإلهية كلما سلك فى مدارج العارفين إلى ما فوق.

والمقامات على العموم عند الصوفية هى الفضائل المكتسبة التى ينتهى إليها صاحبها بعد ممارسة ومجاهدة للنفس ، وقد تصل به هذه الفضائل إلى حد كبير من الرضى عند الله فيكون عند حال (كن) أى كلما طلب شيئا من ربه استجاب له وذلك بما يوحى به الحديث القدسى : « عبدى أطعنى أجعلك ربانيا ، تقول للشىء كن فيكون » .

ومن هنا يتبين للقارىء الكريم أن ابن المنير كان موفقا فى اختياره (المقامات) عنوانا لكتابه عن القبارى ، وهى كلمة لها دلالتها وأحقيتها من كلمة (مناقب) فقد كشف الكتاب فعلا عن الفضائل الجمة التى تمت بالكسب والتى

جاهد القباري طول حياته في اكتسابها ، وكما يقولون : الطبع بالتطبع ، والكرم بالتكرم ، ولعل هذه الوجهة التي اختارها القباري لنفسه هي السبب في أن أصحاب المشيخات والمعاجم لم يسلكوه مع المتصوفة ولا الفقهاء ولا غيرهم، لأنه كان في الحقيقة نوعا فريداً نادراً ، لم يعرف مثيل له في أعلام الإسلام والشيخ القباري حسبما نرى من خلال الكتاب بعيد كل البعد عن الشطحات والاصطلاحات ، والخروج بالحالة النفسية إلى ما ينافي الشرع الكريم ، أو يذهب بالوجد إلى حالة الغيبوبة ، وكان جديراً بالكتاب أن يعنون بسيرة أو حكايات أو نوادر أو مأثورات عن المترجم له ، أما أن يعنون باسم المقامات فذلك يصرف الأذهان إلى غلاة التصوف وأساليبهم ومصطلحاتهم ، وليس عند القباري مطلقا ما يمكن أن نقرأه عند الحلاج أو رابعة العدوية أو محيي الدين بن عربي أو ابن الفارض أو الششتري وغيرهم ، ممن وضعت عنهم المجلدات الضخمة ، لتفسير مضامين ما ورد عنهم من شعر ونثر في علم التصوف .

ونشهد بعد هذا كله أن لغة الكتاب سهلة ميسورة لا تعلو على فهم القارىء العادي ، وإن كانت تتضمن مسائل تحتاج في فهمها إلى زاد ضخم من المعرفة الفلسفية على اختلاف جوانبها ، وخصوصا الإسلاميات كالفقه والتصوف والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الرجال وعلم التاريخ ، فضلا عن تفاسير القرآن وكتب الأحاديث وعلوم اللغة بأجمعها حتى يمكن الإحاطة بالقيمة العلمية التي تركها لنا القباري ، والتي نريد أن نضعها في مكانها من مقاييس النقد والتقييم .

هذا وكم كنا نود أن نجد ترجمة للقباري عند ابن فرحون ، وهو الذي عني بتراجم المالكية من معاصريه ، ولا سيما الإسكندرانيين كعادته بتفصيل مريح ومشبع لطلاب البحث عن الأعلام ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن القباري لم يكن صاحب مدرسة أو صاحب مؤلفات .

القبارى..ومعاصروه

هذا ونرى من حق القارىء أن نكشف له عن شخصية ابن المنير واضع «كتاب مقامات القبارى» وعن علاقته الوثيقة بالقبارى ثم نتعرف على أشهر معاصريه ومعاشريه واحداً واحداً .

ابن المنير (٦٨٣ - هـ)

القاضى أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبى القاسم بن مختار بن أبى بكر الجذامى الحرونى ناصر الدين بن المنير (بضم الميم وفتح النون وكسر الياء المشددة) الإسكندرى المالكى ولد فى ٣ من ذى القعدة سنة ٦٢٠ هـ بالاسكندرية من أسرة عرفت بها ، جيلا بعد جيل واشتهر أفرادها بالعلم والفضل والمكانة، ومات بها فى مستهل ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ أى بعد وفاة القبارى بإحدى وعشرين سنة .

كان إماما فى النحو والأدب والأصول والتفسير والبيان والإنشاء والقراءات، وكان علامة الاسكندرية فى غزارة العلوم ، وكثرة المناصب .

وسمع من أبيه ومن ابن رواج ، كما سمع منه أبو حيان، وولى قضاء الاسكندرية وخطابتها وكان يقوم بالتدريس بالجامع الجيوشى، وهو المعروف بجامع العطارين، وغيره ، وتولى نيابة الحكم بالثغر ، فكان يقال له (النائب) ، وقد لقى كثيراً من العنت ما بين عزل ومصادرة ، وإعادة ، وهو ثابت لا يتزعزع إيمانه .

قال عنه سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، « ديار مصر تفخر برجلين فى طرفيها : ابن المنير فى الإسكندرية ، وابن دقيق العيد فى قوص»، وجرت هذه العبارة على ألسنة الكثير من المؤرخين .

وكان نشيطا فى مباحثه ومؤلفاته ، قال عنه ابن دقيق العيد « مايقف فى البحث على حد »وقال عنه ابن الحاجب « أراد أن يصنف فى الرد على والأحياء فخاصمته أمه وقالت له : فرغت من مضاربة الأحياء ،وشرعت فى مضاربة الأموات، فتركه» ؟؟.

ومن مؤلفاته تفسير القرآن الكريم المسمى (البحر الكبير فى نخب التفسير) و« الانتصاف من صاحب الكشاف » وضعه فى شبابه بتقريظ العز بن عبد السلام وله «مناسبات تراجم البخارى» وله كذلك ديوان خطب وتفسير حديث الإسراء فى مجلد ، على طريقة المتكلمين ، وله أيضا (الضياء المتلالى فى تعقب الإحياء للغزالى) وهو رد على الإمام الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) ، وقال عنه ابن الحاجب :

لقد سئمت حياتى البحث لولا

مباحث (صاحب الاسكندرية)

وهذه شهادة لها قدرها من ابن الحاجب صاحب (الشافية) و (الكافية) وهما حجة علماء العربية فى النحو والصرف حتى لقد سماه (صاحب الاسكندرية)، وللشاعر أبى الحسين الجزار شعر فى مدحه أيضا،وذكر صاحب «فوات الوفيات» أن ابن المنير قد كتب إلى الفائزى يسأله رفع التصقيع (١) عن أهل الثغر فقال له شعرا :

إذا اعتل الزمان فمنك يرجو

بنو الأيام عاقبة الشفاء

وإن ينزل بساحتهم قضاء

فأنت اللطف فى ذاك القضاء

(١) التصقيع ضريبة كان يفرضها الحاكم من أجل تصقيع المدينة أى تجميلها .

وإذا رجعنا إلى أصحاب التراجم الذين كتبوا عن ناصر الدين بن المنير وابن أخيه الأديب الفقيه الشاعر عز القضاة عبد الواحد بن المنير المولود سنة ٦٥١ والمتوفى سنة ٧٣٣ هـ أو سنة ٧٣٦ هـ وأقاربهما لم نجد عندهم أى إشارة إلى أن صاحبنا قد صنف كتابا عن القبارى، فالسيوطى عندما ترجم له فى «بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة» لم يذكر كتابه عن القبارى، وإنما ذكر ذلك فى ترجمة الزهاد ومنهم القبارى فى «حسن المحاضرة». وكذلك الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ لم يشر إلى كتاب عن القبارى أيضا، عند الترجمة لناصر الدين بن المنير، أما ابن فرحون المتوفى سنة ٦٧٧ فقال إن له مناقب الشيخ أبى القاسم القبارى .

وأشار ابن عزم إلى أن ابن المنير جمع للقبارى ترجمة مفردة ولم يزد على ذلك . ولما ترجم لابن المنير لم يشر إلى هذا الكتاب وكذلك فعل جميع الذين ذيلوا على ابن عزم، على الرغم من ذكرهم مؤلفاته .

والمعروف أن ناصر الدين وأخاه زين الدين الفقيه (- ٦٩٥ هـ) قد أخذا عن ابن الحاجب ودرسا عليه، وقد أجاز ابن الحاجب بالفتيا لناصر الدين، واشتهر أمره فى الإسكندرية وغيرها قاضيا ومفتيا وإماما ومدرسا وخطيبا وناظرا للأوقاف والمساجد، وبلغ من الشهرة شأوا بعيدا، حتى قال عنه قاضى القضاة تقى الدين ابن شكر :

«أجمع الشافعية والمالكية على أن أفضل أهل القرن السابع بالديار المصرية ثلاثة : القرافى بمصر القديمة، وابن المنير بالإسكندرية، وابن دقيق العيد بالقاهرة» وكلهم مالكية إلا ابن دقيق العيد .

ولم يذكر ابن المنير قط أن القبارى قد تشفع يوما لدى مالك أو سلطان فى عالم أو غيره، غير أن ابن واصل يذكر لنا أن القبارى قد طلب من الظاهر

بيبرس عندما زار القبارى فى بستانه سنة ٦٦١ هـ ، أن يعين ناصر الدين بن المنير قاضيا و خطيبا بثغر الإسكندرية، فأجابه إلى طلبه إذ كان تلميذه وجليسه ومريده والمعروف بخلقه الكريم ، ومسلكه المستقيم ، وأصله النبيل ، غير أن بيبرس مالبث أن عاد فعزله عن عمله ، فور وصوله إلى القاهرة ، وعين نائبا بدله بالإسكندرية .

مات ناصر الدين بن المنير عن نحو ستين سنة ، قضى منها ما لا يقل عن عشرين سنة فى صحبة القبارى ، وهى فترة طويلة تمكنه من التعرف عليه عن قرب ، وتمكنه من استيعاب مناقبه واستحضارها ، فلما مات القبارى كان ابن المنير فى أوج نضوجه: فقد تجاوز يومئذ الأربعين من عمره ، ثم عاش بعده عشرين سنة لم تزل آثاره وذكرياته خلالها عالقة بذهنه ، تنبض بالحيوية ، وتدفع التلميذ الوفى لإذاعتها بين الناس ، وفاء بحق الأستاذ أو الشيخ ، كما كان يقول عنه دائما فى مقاماته .

فإذا ما عرفنا هذا القدر العظيم الذى بلغه ناصر الدين بن المنير من العلم والفضل والمكانة استطعنا أن نعرف قدر أستاذه وشيخه ومجالسه ورفيقه ومحدثه الشيخ القبارى ، مما جعله ينفرد بوضع كتابه دون معاصريه ومعاشريه وكما وضع الحسن ابن عتيق السكندرى «المفاخر السنية والمآثر الرضية» فى سيرة شيخه عبد الله بن سعيد الهلالى الربعى قاضى الإسكندرية وخطيبها. وكذلك ابن عطاء الله السكندرى فوضع «لطائف المنن» عن شيخه أبى العباس المرسى وأستاذه أبى الحسن الشاذلى .

وفى خلال كتابنا هذا وقفات يتبين منها للقارىء مدى ما كان يضفيه ابن المنير على القبارى من الإجلال والتبجيل، والاحترام لآرائه والتقدير لأعماله السلوكية التى صار يضرب بها المثل فى العفة والنزاهة وعزة النفس .

الشاطبى (ـ ٦٧٢ هـ)

أما الشاطبى المعاصر للقبارى فهو أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى ولد بشاطبة بالأندلس سنة ٥٨٥ هـ ونزح الى دمشق ثم الإسكندرية فاستوطنها ، وانقطع للعبادة فيها ، فى (رباط سوّار) ، وجمع فى حياته بين العلم والعمل ، وظل على هذا حتى توفى بالإسكندرية سنة ٦٧٢ هـ ، ولا يزال قـبره ظاهرا إلى اليوم فى الحى المعروف باسمه وهو حى الشاطبى ، على مقربة من شاطىء البحر حيث كانت زاويته وتربة شيخه ، وله مؤلفات عدة فى القراءات والتفسير ومنها (زهر العريش فى تحريم الحشيش) وقد زاره الظاهر بيبرس مرتين إحداهما سنة ٦٦١ هـ بعد أن زار القبـارى ، والأخرى فى السنة التـالية حيث كان القبارى قد توفاه الله وكان عالى الهمة عزيز النفس عرف بالزهد والورع .

منصور بن سليم (ـ٦٧٣هـ)

ومن معاصرى القبارى أيضا منصور بن سُلَيْم الهمذانى الإسكندرى الملقب وجيه الدين ، محتسب الإسكندرية مؤرخهـا ولد بها سنة ٦٠٧ هـ وتوفى بها سنة ٦٧٣ هـ ودفن بين الميناوين ، وسمع بالإسكندرية ومصر وحلب ودمشق ومكة وبغداد ، وكان محدثا فقيها ومؤرخا ، شهد الجميع له بالفضل والخلق والكرم والعلم الغزير ، وله عدة مؤلفات على رأسها (الدرة السنية فى تاريخ الإسكندرية) فى ثلاثة مجلدات وهو مفقود ، ولكن نقل عنه ابن فرحون وغيره كثيرا من تراجمه وله أيضا «معجم شيوخه» و (المستجاد من فوائد بغداد) وتولى الحسبة والتدريس بالإسكندرية

ابن الحاجب (ـ ٦٤٦ هـ)

وأبو عمرو بن الحاجب أيضا كان من معاصرى القبارى وهو دمشقى مصرى سكندرى واستوطن مصـر والشام ، واستقر فى الإسكندرية ومات بها فى ٢٦ شوال سنة ٦٤٦ هـ ، وقبره خارج باب البحر وكان مولده بإسنا سنة ٥٩٠ هـ ،

وقد ترجم له ابن خلكان وابن فرحون وأبو شامة والذهبي ، وأشادوا بعلمه وشهرته فى النحو والصرف ، وحواشى الأجيال من بعده على كتابيه (الكافية) و (الشافية) لا تعد ولا تحصى ، وعليه درس ناصر الدين بن المنير وأخوه ، ويبدو أن ابن الحاجب لم يدرك من حياة القبارى إلا الفترة التى سبقت انتقاله من البستان الشرقى إلى البستان الغربى لأنه قدم إلى مصر مع العز بن عبد السلام سنة ٦٢٨ هـ ، ولكن حرصنا على وضعه فى سلك معاصريه يرجع إلى مكانته فى الإسكندرية وشهرته كسكندرى فى العالم الإسلامى إذ ذاك فى النحو والصرف .

ابو شامة (ـ ٦٦٥ هـ)

عبد الرحمن بن إسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين أبو القاسم أبو شامة المقدسى الدمشقى الشافعى الفقيه المقرىء النحوى المؤرخ ولد بدمشق سنة٥٩٦هـ وقيل سنة ٥٩٩هـ . وقدم الاسكندرية سنة٦٢٨، والتقى بالقبارى فى بستانه فى هذه السنة فوجده يسقى بستانه فى جرار من ماء خليج الإسكندرية ، وهو يومئذ قليل، فصار يحمله على حمار له ورحب به القبارى وبمن كان معه ثم أجلسهما حتى فرغ من عمله فى البستان ثم قدم لهما ـ على عادته ـ من ثمار البستان .

وقد سمع أبو شامة بالإسكندرية من الشيخ أبى القاسم عيسى بن عبد العزيز وغيره عنى بالحديث ، وأخذ عن العز بن عبد السلام ، وسمع أولاده ، وبرع فى فى الفقه والفتوى والعربية وشرح الشاطبية ؛ وله مختصران لتاريخ دمشق أولهما فى ٢٠ مجلدا والآخر فى ١٠ مجلدات ، وشرح القصائد النبوية للسخاوى، وحصل له الشيب وهو ابن ٢٢ سنة ، ومات بدمشق سنة ٦٦٥ هـ ودفن فيها بباب الفراديس، ومن مؤلفاته «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» و «الذيل على الروضتين» فى تراجم القرنين السادس والسابع وغيرهما . وأورد

أبو شامة عن القبارى مالم يورده ابن المنير وغيره ، والتقى به فى بستانه ، وقد أخذ الشهاب أحمد اللبان عن أبى شامة القراءات .

سبط ابن الجوزى (— ٦٥٤ هـ)

ومنهم أيضا سبط ابن الجوزى يوسف بن قزغلى التركى البغدادى الحنفى ، سمع ببغداد والموصل ودمشق وانتهت إليه رياسة الوعظ والإرشاد والتاريخ ، ولد سنة ٥٨١ هـ وتوفى ودفن بدمشق فى ٢١ الحجة سنة ٦٥٤ هـ ، ومن أشهر مؤلفاته « مرآة الزمان فى وفيات الفضلاء والأعيان » وتحدث عنه مؤرخ الإسكندرية منصور بن سليم وكذلك ابن واصل .

قدم الإسكندرية فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجلس للوعظ بجامع العطارين واستمع إليه القضاة والعلماء ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الخلق , وكان صالحا عالما بالتفسير والحديث والفقه. وتفسيره فى ٢٦ مجلدا ، وكتب فى مناقب على بن أبى طالب ، وكتب فى مسائل الخلاف ، ومعلوماته عن الإسكندرية فى الوقت الذى قضاه بها ، لها قيمتها بالنسبة لحضارتها وثقافتها فى عهد الأيوبيين، نظراً للتفاصيل الهامة التى أتى بها ، واهتمامه بذكر القبارى بكل تقدير وإجلال ، وقد تعلق به أهل الإسكندرية ، وتمسكوا به وقد تأثروا بمواعظه فكانت زيارته نعمة وبركة عليهم، لما تركه فى «مرآة الزمان» من انعكاساته عنها وعن علمائها ومفاخر السلاطين فيها ، وقد توفى قبل القبارى بأربع سنوات.

العز بن عبد السلام سلطان العلماء (— ٦٦٠هـ)

ومن معاصريه أيضا سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، لقبه بذلك تلميذه ابن دقيق العيد ، فاشتهر به ، وهو دمشقى المولد والنشأة ، وتعرف هناك بابن الحاجب، وقد كان لهما موقف احتجاج مشترك على تسليم السلطان الملك الصالح

بعض بلدان الشام للصليبيين فعزاه وطرده ، فجاء مصر وتنقل بين القاهرة والإسكندرية ، وكان شيخ الشافعية ، وزعيم الآمرين بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد ولاه صاحب مصر قضاءها ، وخطابة الجامع العتيق والتدريس بالمدرسة الكاملية ، ومن مؤلفاته المشهورة «تعريف أهل الإسلام بسكنى الشام».

ولما هجم التتار على بغداد سنة ٦٥٦هـ كان على مصر المنصور علىّ بن المعز، وهو إذ ذاك صبي لا يدرك ، فكان سيف الدين قطز وصيّاً عليه فخلعه ، وتلقب بالملك المظفر ، وجاء إلى مصر الصاحب كمال الدين العديم فى طلب النجدة من مصر ، فأعطيت الكلمة لسلطان العلماء فحرض الناس على الجهاد، وأفتى بعزل الصبي ، فى هذه الفترة العصيبة التى تجتازها البلاد وأفتى بأخذ الأموال من الأغنياء على أن يكتفى الواحد منهم بفرس وسلاح، وكل ما عدا ذلك يقدم للمعركة عن طواعية واختيار ، نزولا على حكم الشريعة الإسلامية .

ولما انقضت الدولة العباسية من بغداد ، وحرص السلطان الظاهر بيبرس على استمرار الخلافة الإسلامية ، جد فى جعل مقرها القاهرة ، فكان عز الدين بن عبدالسلام من كبار المبايعين بها للخليفة الإمام أبى العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى ، كان ذلك سنة ٦٦٠ هـ وهى السنة التى توفى فيها العز بالقاهرة وليس بالإسكندرية ، ودفن بالقرافة الكبرى فى سفح المقطم ، وقد شهد السلطان الظاهر بيبرس جنازته .

وكان العز بن عبد السلام مثالا نادراً فى العلماء العاملين، جريئا فى الحق ، لا يهاب أحدا : بنى فخر الدين عثمان أستاذ دار السلطان داراً فوق مسجد، واتخذها طبلخانة، فأفتى العز بهدمها ، وأسقط البانى من وظيفته، وعزل نفسه من القضاء، فنزل السلطان على رأيه ، وقال ابن دقيق العيد إن الحافظ المنذرى امتنع عن الفتيا لما علم أن العز قد استقر بمصر وقال « كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين ،

وأما بعد حضوره ، فمنصب الفتيا متعين عليه. » ، وله مؤلفات قيمة ، وقد التقى العز بن عبد السلام بالقباري فى بستانه بالإسكندرية ، وتحدث إليه ، وربما يكون هذا اللقاء قد تكرر ، فى مناسبات سابقة أو لاحقة ، وجرى حوار أو أكثر بينهما على أساس من الاحترام المتبادل ، وكل منهما متمكن من علمه ، وعلى هذا كانت الصلة بين الرجلين صلة القمة بالقمة ، والإجلال والتقدير ، وتقاربت بينهما وجهات النظر ، فلا عجب إذا تقاربت بينهما أيضا سنة الوفاة.

هؤلاء الأفذاذ الذين التقوا بالقبارى هم الذين أسعفنا المؤرخون بذكرهم ، واستطعنا أن نكشف عما غمض من هذه العلاقة بينه وبينهم ، ومنها يبدو أنها كانت علاقة طيبة أكسبت القبارى محبتهم واحترامهم ، لما كان يتمتع به من سلامة العقيدة وحسن السيرة والسريرة ، والسير فى طريقته الخاصة على مقتضى الشرع فى الوسط الضيق الذى عاش فيه وارتضاه لنفسه ، وليس معنى ذلك أن هؤلاء هم وحدهم الذين عرفتهم الإسكندرية فى عصره ، بل كانت الإسكندرية ، إذ ذاك أشبه بخلايا النحل: حركة ونشاطا ، علما وعبادة ، على أيدى الوافدين عليها من الشرق والغرب كما سنرى ذلك مسهبا فى حينه من الكتاب .

معالم الإسكندرية... والقبارى

هناك رجال لهم تاريخهم ، ولكن يصعب على القارىء أن يقف على معالم البيئة التى عاش أحدهم فيها وتأثر بها ، وكان لها انطباعات عميقة فى وجدانه، أما القبارى فقد عاش بالإسكندرية وأدركها فى القرنين السادس والسابع، وعرفنا من خلال سيرته كثيراً من معالمها التى أبرزها المؤرخون ، ولاسيما ابن المنير ، وابن واصل ، وسبط ابن الجوزى ، وابن جبير .

حقا لقد كانت الإسكندرية ذات تأثير قوى فى حياة القبارى وعصره الذى عاش فيه ، وانعكست أصداؤها على مرآة نفسه ، وعرفنا الإسكندرية «القبارية» - إن صح هذا التعبير - وكأننا أمام شريط مصور أو فيلم سينمائى أو عرض تليفزيونى واضح ، فنشاهد وسط المدينة عامراً بالمنشآت والمساكن ، والشوارع غاصة بالمعاهد العلمية والمتاجر والفنادق ، يحيط بها خليج الإسكندرية من الشرق منحرفا إلى الجنوب ، ومتجها إلى الشمال ، حتى ينتهى غربا عند الميناء الغربى ، وعلى ضفافه المزارع والبساتين والقنوات المائية تتفرع منها تحت الأرض فى شبكة متشابكة فى جميع أرجاء المدينة التى كانت يومئذ وكأنها جنة تجرى من تحتها الأنهار ، والسواقى تدار بالحمير والبغال ، والآبار موزعة هنا وهناك ، ولكل بيت من البيوت صهريج يشرب منه أهله ، بخلاف مجارى المياه التى تصرف إما فى الخلاء الفسيح الممتد إلى ما وراء العمران ، وإما بعيداً أو قريبا فى البحر.

وفى هذا الوقت كان (ثغر) الإسكندرية موضع اهتمام الملوك والسلاطين والولاة ، وهناك القصور والقلاع وخزائن السلاح ، والأغنياء - ولاسيما تجار الإفرنج - ينعمون بالنزهة فى مروجها الخضراء .

وفى الإسكندرية يومئذ حدائق متطرفة فى شرقيها، ومساكن ودور من حولها، وبذلك عرفنا أهمية (منطقة الرمل) من خلال سيرة القبارى ، والخليج ممتد إليها يرويها بالماء ، ويحيل رمالها وتلالها إلى حدائق غناء ، يقصدها الإفرنج بنسائهم فى أيام العطلة وفى فصل الربيع .

واستطعنا من خلال سيرة القبارى أن نعرف اهتمام السلطان بتطهير الخليج لأهميته بالنسبة للإسكندرية كمنطقة استراتيجية ، وكمدينة إسلامية دولية ، تطل على البحر ، بها مساجد عامرة ، ومسالح وخانقاه وأربطة وكنائس وأديرة موزعة فى مختلف أرجائها ، فنراه يذكر لنا (جامع الدوانيق) ، بما لم نسمع به من قبل أو من بعد ، فى كتب التاريخ ، التى بين أيدينا ، المخطوط منها والمطبوع ، كما يذكر (الجامع الغربى) ، وهو جامع العطارين أو الجامع الجيوشى - كما يقولون أيضا - ولو أنه فى وسط المدينة إلا أن وصفه (بالغربى) ، دليل على أنه كان فى أقصى الغرب من العمران ، ولهذا المسجد ذكر كثير فى التاريخ سواء قبل القبارى أو بعده .

ويذكر القبارى مسجداً باسم (المسجد المؤيد) ، وانفرد هو بذكره كما انفرد بذكر (جامع الدوانيق) . فيمن سبقه ولحقه ، ولا ندرى نحن أين مكانهما ، وكان ملحقا بالأول منهما (صهريج سبيل) . كما يذكر أنه كان يخرج إلى (الجزيرة) وهى طبعا جزيرة فاروس أو جزيرة رأس التين ، ولم تكن قد اتصلت بعد بالمدينة ، وربما كانوا يعبرون إليها فوق بعض الصخور الضخمة ،

حتى لا يتعرضوا لمساء البوغاز القديم .

وهناك المدارس الإسلامية أو (مجالس العلم) - كما جاء فى سيرته - يقصدها طلاب العلم من كل مكان، ليستمعوا إلى (الدرس)، كما رأينا فى بدء حياة القبارى، وقد استطعنا من وراء سيرته أن نذكر أسماء تلك المعاهد الإسلامية عند مؤرخ سكندرى هو النويرى السكندرى : من أبناء القرن الثامن الهجرى .

ونرى فى سيرة القبارى أن (الجهة الغربية) أو (الخط الغربى) - بهاتين العبارتين - من الإسكندرية لم تكن عامرة ، فإذا به يهجر (الرمل) إليها عبر (القنطرة) التى أقيمت - على الأرجح - فوق الخليج فى نفس المكان الذى فيه الآن (كوبرى التاريخ) ، ويعيش القبارى بعد هذه (القنطرة) على مسافة نصف كيلو متر إلى الغرب ، ثم مسافة ربع كيلو متر إلى الجنوب حيث كان بستانه ، الذى عرف هناك باسم (غيط القبارى) وامتدت التسمية إلى وقتنا هذا باسم (بستان القبارى) ، وعلى ألسنة العامة (جنينة القبارى) ، وقد أطلقت هذه التسمية على منطقة البستان القديم فعلا - الذى لا تزال (الساقية) بعض ما تبقى لنا من آثاره فى الوقت الحاضر .

وكان ثمت (القصر) أو (الدير) الذى كان القبارى يعيش عنده أو فيه ويسميها بناحية الدير ، ونرجح أنه بقية آثار من العصر البطلمى .

ونسمع باسم جبل فى غرب المدينة لأول مرة هو (جبل الصيقل) ، ويضعه راوى سيرته فى (غربى الثغر) أو فى (المكان الغربى فى المباح) حيث الكهوف والمغارات والصحارى المقفرة ، ومع ذلك كانت توجد (صهاريج السبل) فى (الخط الغربى) ومنها (صهريج الطويل) و « يقصده الناس فى الصيف للشرب منه ، لبرد مائه» ، كما يقول ابن المنير ، وبذا يمكن

الوقوف على أن (أسرة الطويل) المعروفة الآن وهى من عائلات الإسكندرية العريقة ، ترجع فى أصلها إلى أكثر من سبعمائة سنة ، وأن من مآثرها العامة ذلك الصهريج الذى أقاموه هناك فى غرب الإسكندرية للصدقة ، فى هذا المكان البعيد من المدينة ، وقد تبقى لنا من هذه الصهاريج ما يسمى بصهريج ابن النبيه .

وعرفنا أيضا صلة القبارى برجل فاضل له مكانته العلمية والمدنية ، هو القاضى ناصر الدين بن المنير نائب الإسكندرية وقاضيها وخطيبها ومفتيها ، وهو أصلا من الإسكندرية وأغلب أفراد أسرته من العلماء الأجلاء ، الذين تفخر بهم على مر العصور ، وابن المنير هو الذى كتب سيرة القبارى كتابة المقرب إليه ، العارف بكل دقائق حياته ، عن وفاء السكندرى لأستاذه السكندرى ، كما نسمع على لسان القبارى برواية ابن المنير ذكر بعض العائلات فى وقته ، مثل (بنى عطية) ، وهم أولاد فقيه معاصر له اسمه شهاب الدين ولم يزد على قوله بأنه كان له ولدان (قرينان فى الاشتغال بالعلم وفى الحج).

ثم يذكر لنا ابن المنير أنه كان يذهب إلى (الميدان) على ظهر دابته ، فيلتقى هناك بالتجار الإفرنج بائعا شاريا ، مما يشير إلى أن ذلك الميدان ربما هو (ميدان التحرير) الحالى والذى كان يسمى (ميدان المنشية) أو (ميدان محمد على) ، أما البحر وما يتعلق به من صيد ومراكب وشباك وصيادين فله أصداء بعيدة عند القبارى فى أطوار حياته ومجالاته الفكرية .

تلك هى معالم الإسكندرية — كما وردت على لسان القبارى نفسه — أو رواها عنه تلميذه ناصر الدين بن المنير صاحب (مقامات القبارى) ، وهذه المعالم فى الحقيقة جزء من تاريخه ، ولولا هذه السيرة ما استطعنا

العثور على هذه المعالم التى أسقطها غيره من المؤرخين ، ولم يعنوا بها ، ولكن المهتمين بطبوغرافية الإسكندرية يجدون فى ذلك كل المتعة ، وهم يتابعون هذه التطورات العمرانية فيها ، لربط الماضى بالحاضر .

ومن هنا تأتى أهمية العمل الذى نقوم به لكشف ما غمض من تاريخ أعلامنا السكندريين الذين أسهموا فى صنع الحضارة والثقافة ، وأبرزوا لنا بعض معالمها التى اندثرت معنا فى التاريخ ، ولكنها لم تندثر مع سجلات التاريخ .

حيـاة القبارى

الكلمات القصيرة التى لاتتجاوز أحيـانا السطر أو السطرين عن القبارى فيما كتبه أصحاب التراجم لاتعطينا صورة واضحة عن معالم شخصيته، ومع ذلك نستطيع أن نستشف من الحكايات والنوادر التى تضمنها كتاب ابن المنير بعض الملامح الجسمانية والأخلاقية للرجل.

الاسكندريـة لاغـيـر :

أما بلده فهو الإسكندرية ؛ بها ولد وعاش ومات ودفن بظاهرها، ولم نعرف له ولداً ولا بنتا، لأنه لم يتزوج فى حياته ، ولم نعرف من أهله أحـداً إلا أن أباه واسمه منصور من أهل الإسكندرية ، وورث القبارى عنه داراً خربة، وبستانا برمل الإسكندرية، يروى ابن المنير عن شيخه أنه قال :

«سبق إلى ذهنى فى مبدأ العمر اختيار بستان بالرمل من متروك أبى أنقطع فيه . . . » وعاد يقول فى مكان آخر إنه كانت لهم دار خربة وبأعلاهـا غرفة كان ينقطع فيها وهو صبى ويشكو إلى الله إهانة زميل له، بخل عليه بإعادة درس المدرس عليه بصوت مرتفع ، ودعا عليه فاستجاب الله له .

من هو أبوه ؟ عالم أم زاهد ؟ سكندرى أم وافد ؟ ـ ترى من تكون زوجته التى أنجبت له أبا القاسم ؟ من هم إخوته وأخواته ؟.

لاندرى عن ذلك كله شيئـا ، ما دامت المصادر التى بين أيدينا عاجزة عن الوفاء بالمطلوب ، ومع ذلك روى القبارى لنا بصدد ما ذكره عن أدائه فريضة

الحج أنه كان له أخ مات بالإسكندرية ، فورثه القبارى من بعده ، ولا نعلم شيئا أكثر من ذلك عن أخيه .. وأبوه منصور وجده يحيي .. ولا أكثر .

هو إذن سكندرى من غير جدال : جده وأبوه وأخوه من أهلها ، لا من الأندلس ولامن الشام: وكذلك أبو القاسم المولود والمتوفى والمدفون بالإسكندرية حتى إنه لم يغادر الثغر إلا للحج، وما يزال قبره ومسجده قائمين فى حى من أكبر أحياء الإسكندرية ، عرف به وهو (حى القبارى) .

البستانى الراهب :

ولم يعرف عن القبارى أنه تزوج فى حياته قط ، وعرف الناس ذلك أشد المعرفة ، فقد انقطع فى بستانه بحى الرمل شرقى الإسكندرية ، وهو فى شبابه ، وعاد لينقطع غربى الإسكندرية ، فى قصر أثرى مهدم، أنشأ من حوله بستانا أيضا، وكان مشهورا كل الشهرة عند جميع من يعرفه ، ومن لا يعرفه ، حتى اللصوص كانوا يعرفون أين هو (غيط القبارى) .

دق أحد الجنود على باب القصر الخرب الذى كان يسكنه القبارى بمفرده ، وكان الشيخ قد أصبح مريضا يشكو ألما بمفاصله، فعاد الجندى بعد عدة طرقات يحكى أن امرأة قد فتحت له الباب . وقالت : إن الشيخ ضعيف ، وحكى الجندى ذلك لاثنين من جيران القبارى من آل عطية فلما رأياه تعجبا وسألاه عن صحة ما قاله الجندى فسألهما هو : أسمعتما قط أن عندى امرأة ؟ فقالا : لا ولكن حملنا الأمر على أنها من الأهل جاءت لزيارتك فقال لهما : ماعندى أحد ألبتة . . إلى آخر القصة التى سننتفع بها كاملة فى موضع آخر من هذا الكتاب ، وحكى القبارى عنها أنها كانت من الجن .

والمهم أن بيت القبارى ـ الذى لم يتزوج ـ لم تدخله امرأة فى حياته قط ، وكذلك بستانه ، وإن كان يفهم من القصة السابقة أن أسرته معروفة بالإسكندرية، وفيها رجال ونساء، ولكنا لا نعلم عنهم شيئا .

لاسمع ولا شم ولا ذوق :

وكان القباري عليه رحمة الله مصابا بثلاث من الحواس مرة واحدة : السمع والذوق والشم ، وكان على ذلك صابراً لأمر الله ، غير برم بالحياة ولا ساخط على الناس والمقادير ، ولو قد أصيب أحد سواه بعاهة واحدة لا بثلاث ، كما أصيب هو ، لقيل عنه كما يقال عن غيره : كل ذى عاهة جبار ، ولكن الرجل كان راضيا بقضاء الله وقدره ، وسنرى كيف أنه كان رقيق الشعور ، مرهف الحس ، استطاع أن يمضى فى المجتمع متكيفا به متفاعلا معه - كما يقول علماء النفس - وكأن واحداً من معاصريه والمقربين إليه ، لا يعرف عنه طوال العمر الطويل الذى سلخه أنه كان لا يسمع ولا يشم ولا يتذوق ، بل على العكس كان يبدو وكأنه سوى الخلقة ، مبرأ من كل عاهة .

يقول ابن المنير :

« وكان رحمه الله قد حمل عنه الشم ، فلا يشم طيباً ولا رديئاً ، وبهذا - والله أعلم - استعان على شظف العيش ، وكان يكتم هذا من نفسه ، وما أظهره لى قط ، ولكن فهمته من قرائن أحواله ، وأخبرنى به بعض من باطنه فى الخدمة . فكانت الطعوم أيضاً قد حملت عنه ، فلا يفرق بينها ، ولهذا كان يقسم بالله أنه لا يأكل بشهوة منذ زمن طويل ، ولا يأكل إلا سدّاً للخلة (الحاجة) لا غير » .

ويقول فى موضع آخر :

« وكان يحضر مجالس العلم على ثقل سمعه ، فإذا انقضى الدرس سأل من أترابه أن يعيدوا له بصوت عال كلام المدرس » .

حادث فى الحج :

وعندما حج إلى البيت الحرام - وهو شاب ، جرى له حادث ، حكاه لتلميذه

ناصر الدين بن المنير ، للاستدلال على تصريف القدر للعبد بلا تدبير منه ، فقال ابن المنير إنه كان فى الركب راجعا من مكة فى أول حجة وهو شاب ، قال - أى القبارى :

« فكنت فى آخر الركب ، فخرج العرب على الركب وتخطفوه وتعلقوا بأواخره فجئنا إلى عقبة تبلدت الناقة عن هبوطها فأدركنى بدوى راكب ومعه سيف مصلت ، فهوى به إلى وضربنى فصادفت ضربته ساقى فكان لها طنين ، وكانت تلك الضربة سبب نجاتى، لأن الناقة لما أحست بصوت الحديد نهضت فزجت نفسها من العقبة ، ففته أن يضربنى ثانية ، فوقع لى عند حكاية قول بعضهم فى الحكاية المشهورة : نجيناك من التلف بالتلف ».

حادث كهذا لابد أن يترك صداه العميق فى نفس شاب مؤمن كالقبارى: نشأ فى طاعة الله وخرج إلى الحج، وإذ نجاه من الهلاك فقد شكره ، وواصل شكره ، والشكر نصف الإيمان، والصبر نصفه الآخر .

وكما يقول عنه ابن المنير: «وعلى الجملة فكان حال الرجل صحيحا، وقدمه راسخا، وعزمه ثابتا ، فكان إذا شرع فى خير داوم عليه ،وأعين ، والعون هو الأصل».

الفتوة المؤمنة :

كان الشيخ القبارى - الذى عمر خمسا وسبعين سنة - قوى البنية فى شبابه ، شجاعا لا يخاف ولا يجبن ، فقد تغلب على أربعة عشر رجلا من الشيوخ بمطرقة فى يده ، فأجلاهم ليلا حتى بلغوا القنطرة خوفا من قوته البدنية ، وثبات جنانه، وكان يقول عن نفسه: «أنا إن أخذت مطرقة ولقيت ثلاثين رجلا لا أبالى بهم».

وكان له سيف يحسن الضرب به ، ومع ذلك لم يكن يعتمد عليه بقدر

اعتماده على نفسه وشجاعته النادرة ، حتى لقد هجم عليه فى قصـــره وبستانه فى غرب الإسكندرية زهاء مائة فارس من الأعراب ، وادعوا أنه أخفى غنما لهم ، وشرعوا الرماح فى وجهه ، فصرخ فيهم صرخة قذفت الرعب فى قلوبهم ، وقال لهم: «أما تستحون من الله».

وفى صباه كان خفيف الحركة فى طلوع النخيل الباسقة ، حتى لقد كان وهـو فى أعلاها يلقى الطبق ، فيه البلح ويسبته إلى الأرض ، كما كان يخلص كرانيـف النخل من أعلاها بيده دون منجل .

وكان أيضا يحمل المواهى (القفف) وهى مملوءة ويرفعها بإحـدى يديه على ظهر الدابة العالية ، بحيث يعجز أربعة رجال عن رفعها ،وكانت دابته عالية،ومع ذلك كان يمتطيها فى خفة ويسر .

ولا شك ان الرجل ـ وهو يعمل فى بستانه طول حياته ـ قد اكتسب صحة وعافية إلى جانب ما وهبه الله من قوة البدن ،والبعد عن الهموم والمشاكل المعيشية، والقوة سواء كانت بالفطرة أو الاكتساب مرغوبة، لقول الله تعالى « وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم»ولقول النبي عليه السلام « المؤمن القـوى خير وأحب إلى الله من المـؤمن الضعيف ، وفى كل خير » .

ومع ذلك كان يصاب من حين إلى حين بمرض عارض، كما حدث له فى الحج، حيث كان الطاعون ينتشر بين حجاج بيت الله الوافدين عليه ، من أقصى البلاد والأصقاع ولم يكن ثمت ما يعرف بالحجر الصحى أو طرق الوقاية من الأمراض المعدية ، كما أن رطوبة الإسكندرية تصيب المفاصل أيضـا بما يسمى بالروماتزم ، وقد حدث له ذلك كما رأينا حتى لقد عجز يوما عن ركوب دابته العـالية لولا أن وطأوا له من حشـائش البحر فى حفرة ، حـتى ركب ، وكان وحده يقـدر على

امتلاك زمام دابته ، بينما كانت تنفر ممن يركبها سواه .

ويجب ألا ننسى أثر المعيشة فى الهواء الطلق بين الخضرة والصحو والصفو والجفاف واعتدال المناخ ، ولا سيما فى الإسكندرية سواء فى منطقة الرمل أو فى المنطقه الغربية التى اختارها القبارى لسكناه ، فانتقل إليها ، وقضى بها من عمره ستين سنة من خمس وسبعين ، عاملا كادحا ما بين بستان وبستان.

الخادم الامين :

وكان للقبارى خادم يخدمه ويعينه فى معيشته ويسمى أبا الطاهر بن أبى العز ، قضى فى خدمته أربعين سنة ؛ وكان رجلا صالحا يكثر من تلاوة القرآن الكريم وأخلص فى طاعة ربه ، كما أخلص فى خدمة الشيخ ، وكثيراً ما كانت دمعته حاضرة.

وكان الشيخ يتعفف من تسميته بالخادم ، بل كان يطلق عليه اسم (الرجل) « على عادة أهل الكرم » كما يقول ابن المنير ، وكأن هذا الخادم قد تطبع وتأثر بسلوكه ، وعرف الناس عنه ذلك ، حتى لقد مرض أحد تجار العجم الأغنياء فأشار عليه تابع له أن ينذر خادم الشيخ بشىء إذا من الله عليه بالشفاء ، فلما شفى ، جاء للوفاء بنذره ، وعرض على الخادم مالا ، فامتنع وألح وأصر ، والآخر مصمم على الامتناع ، حتى أرغم الرجل أمام إلحاحه ويمين له غليظة على القبول فقبل وهو محرج ، وعلم القبارى بذلك فطرده ولم يسمح له بالبقاء فى خدمته التى امتدت إلى أربعين عاما ، ألغاها القبارى من حسابه بجرة قلم ، عقابا له على قبوله النذر .

ومع ذلك كان يسمح له بالوقوف خلف السور كل يوم لمشاهدة مولاه ، وكان يظل واقفاً على هذا النحو طول النهار يتلو القرآن ، واستمر على هذا ثلاثين سنة ، ولكنه لم يكن يحرمه من ملء وعائه من الماء الذى يريده ، ويرفع إليه بصره

ويسأله فى خجل : ما تحتاج ياسيدى ؟ وكأنما كان يكفر عن كبيرة .

على أن غضبة القبارى على خادمه لم تمنعه من أن يبره على عادته، فكان يعطيه الحطب ليستدفىء به ، إذا حل البرد ، ويخصه بالزكاة كما كان الخادم يشعر بأنه سيموت إذا انقطع الشيخ عن رؤيته فلما انقطع فى القصر الذى كان يسكنه، واشتد عليه المرض ، ولم يعد يستطيع الخروج على عادته ، أصابه النحول والذبول ، حتى مات ، فما لبث القبارى - عليه الرحمات السابغات - أن مات بعده بسنة واحدة ، وكأنهما كانا على موعد مع الله فى جنات النعيم .

صاحب البستان :

ومن المميزات التى حرص المؤرخون والتراجمة على ذكرها فى الحديث عن القبارى وحياته ، ذلك البستان الذى كان له . يقول أبو شامة «كان يخدم بستانه بنفسه» ويقول ابن كثير : «وكان متيما بغيط له ، يقتات منه، ويعمل فيه ويطعم الناس من ثماره» ويقول المناوى : «وله بستان يقتات منه ويطعم الناس من ثماره» وقال ابن العماد الحنبلى : «كان له بستان يعمله ويتبلغ منه» .

وفى الحق أن هذا البستان كان له دور كبير فى حياة الرجل ، بل إن سيرته كلها تدور ملامحها حول هذا البستان ، الذى باتت له من الأهمية بحيث لم يكن فى اعتباره إلا قاعدة أساسية لتراثه المجيد ،الذى نحتفى به فى هذا الكتاب ونعرض لأبعاده ، ونحرص على تقييمه.

وامتدت الحياة بالقبارى حتى الخامسة والسبعين من عمره ، وكان يشكو فى حياته من مرض فى المفاصل ، ربما جاءه من رطوبة الإسكندرية ، وكثرة اشتغاله فى البستان ، وهو يخوض فى الماء ، وألحت عليه الشيخوخة ، ولم يعد

يقدر على الصعود إلى النخلات الباسقة ، التى غرسها بيده ، فى هذه البقعة الغربية من المدينة ، قبل أن ينزل بها أحد ، تلك النخلات التى تحمل مع درجاتها عدد السنوات التى عاشها القبارى هناك ، وهى فى تقديرنا لاتقل عن الستين .

لقد ملك هذا البستان عليه أقطار نفسه ، وكان مصدرا لأفكاره وتشبيهاته ، والمحور الأساسى لأحاديثه ، والحكم التى نطق بها ؛ وقلما كانت تخلو عبارة له من محتويات البستان : نخلة ـ دابة ـ زهرة ـ ماء ـ وهكذا .

وفى يوم وليلة انقطع الرجل عن الخروج إلى الناس من البستان ، الذى كان مقصد الملوك والأمراء والفقهاء ، يقفون هناك عند سياجه ، ينتظرون الأذن من صاحبه ، فإذا سمح لهم بالدخول كانوا من المحظوظين ، وإلا رجعوا بخيلهم ورجلهم لم ينالوا شيئا .

درهم بألف درهم :

وما بين عشية وضحاها انطفأ سراج حياة القبارى ، ولم يعودوا يرونه من خلال الزرب ، ولا وهو يعمل فى البستان ،ولا من كوة الدار ، فقد اختفى إلى الأبد وجهه البهى ، وخمدت أنفاسه التى صعدت إلى ربها ، وكان ذلك يوم ٦ من شعبان سنة ٦٦٢ هـ وطبق نعيه المشرق والمغرب ، حتى صلوا عليه فى دمشق بعد شهر من وفاته بالإسكندرية.

وأحصوا متروكاته ، فكانت شيئا لايذكر ، ومع ذلك أقبل الناس يزايدون فيها للتبرك والتصدق بما يبذلون على روحه الطاهرة فى سبيل الله ، فكان ماثمنه درهم يباع بألف درهم ، حتى بلغ مجموع ميراثه عشرين ألفـًا .

قال ابن كثير: «ترك من الأثاث بعد موته ما يساوى خمسين درهما فبيع بعشرين ألفاً».

ودفن فى مكان من بستانه ، وأقيم على قبره ضريح ، وأنشىء المسجد تذكاراً لمناقب الشيخ الورع زاهد الإسكندرية ... القبارى .

ولا ندرى متى أنشىء هذا المسجد ولكن المعروف أن محمد سعيد باشا هـو الذى أمر بإنشائه حوالى سنة ١٨٩٠ م ثم امتدت إليه يد التجديد سنـة ١٩٦٨ بإشارة من السيد / محمد حمدى عاشور محافظ الإسكندرية عنـد زيارته له وأداء صلاة الجمعة فيه ، فأمر بإقامة جناح ألحق بالمسجد لوقاية المصلين فى الخارج من مطر الشتاء وحر الصيف .

ضريحان ومسجد :

والمسجد بصفة خاصة مساحة صحنه ١٤ فى ١٨ متراً ، وارتفاعه ٦ أمتـار وله مئذنة عالية وله مصلى جانبى مساحته ١٤ متراً فى ٤/١/٢ ، ومصلى خارجى آخر مساحته ٩ فى ٥ أمتار ، بخلاف فناءين آخرين : أحدهما فى الجهة البحرية مساحته ٤٠ فى ٧ أمتار ، وفناء آخر من مدخله الغربى مساحته ١٩ فى ١٢ متراً .

وكانت توجد فى الجهة الشمالية من المسجد خلوة ، ولا تزال الساقية قائمة إلى يومنا هذا ومن نحو ستين سنة ، وإلى عهد قريب جداً كانت تسمى باسم (بستان القبارى) ، ومن المرجح أنها هى البقية الباقية من بستانه المشهور فأقيمت عليها مدرسة القبارى الابتدائية للبنات الحالية ، وأطلق أيضا اسم (جنينة القبارى) على محطة السكة الحديد الواقعة جنوبى هذه المنطقة من خط الإسكندرية ـ مرسى مطروح ، وهو المسمى الخط الصحراوى ، وهى منطقة عامرة بأشجار النخيل والتين ، ولا نستطيع الآن حصر المنشآت والمؤسسات التى تحمل اسم القبارى كمستوصف القبارى وغير ذلك ، كما أن عدداً كبيراً من أبناء الإسكندرية ولا سيما سكان حى القبارى يتسمون باسم (القبـارى) تبركا بالزاهد العابد ، وتيمنا بحمـل اسمه الكريم .

والضريح يقع على يمين الداخل من الباب الغربى وعليه ستر أخضر ، كتبوا عليه اسم «سيدى أبو القاسم الكباري (كذا)».

ولكن الذى يدعو إلى العجب حقا أن يكون على يسار الداخل إلى الضريح ضريح آخر كتب عليه اسم عز الدين بن عبد السلام ، والمعروف أنه توفى سنة ٦٦٠ ه أى قبل وفاة القبارى بعامين ، وأنه دفـــن بسفح المقطم بالقاهرة لا بالإسكندرية ، وربما أقيم له هذا القبر التذكارى فى هذا المكان بالذات ، لما كان بين القبارى والعز ، من روابط المحبة والأخوة والمعاشرة والمعاصرة ، ومن المرجح عندنا أن هذه عادة غير منكرة فى العالم الإسلامى، فكانوا يسمون مثل هذا القبر (قبر رؤيا) ، وقد يكون أحد الصالحين رأى فى المنام صاحب هذا القبر ، فأقام له هذا القبر التذكارى طواعية واختياراً.

وفى الإسكندرية خطأ وقع فيه الكثيرون وهو الاعتقـــاد بوجود قبر عمرو بن العاص بالشلالات ، على يسار الطريق الممتد من شارع السلطان حسين وطريق الحرية ، والمعروف أن عمرو بن العاص لم يدفن بالإسكندرية ، وإنما القبر قبران لحمزة والعباس ولدى المتوكل وهما خليفتان من بنى العباس ، ومن أهل القرن التاسع الهجرى .

— ٢ —

من بستان .. إلى بستان

من الشرق إلى الغــــرب

أما ابن المنير - شكر الله له ما أطلعنا عليه من مقامات شيخه ومناقبه - فقد كفانا مؤونة البحث عن قصة هذا البستان، وهو بحق محور الارتكاز الذى كانت تدور حوله حياة القبارى وفلسفة حياته ، فى آن واحد بل إن اسمه الذى عرف به وانفرد ، إنما ينسب إلى القبـار ، وهو إحدى ثمرات البستان ، فسمى القبارى ...

غيط القبارى:

وكان (غيط القبارى) مشهوراً لدى العام والخاص فى الإسكندرية ، وكان فى عصره أحد معالمها المشهورة ، ومن الواضح أنه تحول بعد موته ، إلى مكان ضريحه ومسجده القائمين إلى يومنا هذا ، تذكاراً لمكانه وزمانه ، بل ومكانته فى التاريخ .

قال أبو شامة فى « الذيل على الروضتين » عن القبـارى : « كان يسكون فى غيط له - وهو البستان - وهو فلاحه ، يخدمه بنفسه ، ويأكل من ثماره وزرعه ويتورع فى تحصيل بذره حـــتى بلغنى أنه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيه تحت أشجاره ، ولا يشاهد سقوطها من شجرة ، يتورع من أكلها ، خوفا من أن تكون من شجر غيره، قد حملها طائر فسقطت منه فى غيطه » ثم يستطرد قائلا:

« وكنت اجتمعت به فى آخر سنة ٦٢٨هـ مع جماعة ، صادفناه وهو يسقى فى جرار ماء من الخليج على حمار له يسقى به غيطه، وكان الماء فى الخليج حينئذ قليلا،

فأجلسنا إلى أن تم عمله ، ثم قدم لنا من ثمر غيطه ، وكذا كانت عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم » .

وفى الحقيقة أن القبارى كان له أولا بستان بالرمل ، ورثه عن أبيه ، وهو صبى ، ثم انتقل منه إلى بستان اخر أنشأه بنفسه فى غرب المدينة ، ولهذا ترددت حكاياته ونوادره فيما بين البساتين ، أى بين فترة من الشباب وصلت به إلى ما دون الخامسة عشرة ، وبين فترة طويلة تبلغ أربعة أضعافها ، قضاها فى الغرب متنقلا بين الرجولة والشيخوخة والكهولة إلى أن توفاه الله .

أما بستان الرمل ، فلا ندرى بالضبط أين كان مكانه ، ومهما بذلنا من جهد للبحث عن ذلك فإنه ضياع لا طائل تحته ، ولكن يكفى أن نعرف أن الإسكندرية كانت جزيرة ، وكان البحر حدها الشمالى ، والفرع الكانوبى حدها الشرقى ، ويمتد من خليج الإسكندرية ويمضى إلى جنوبها ، حتى ينتهى إلى الغرب ، فيصب فى البحر عند الميناء الغربى ، بينما كانت جزيرة فاروس منفصلة عنها بالبوغاز الذى تم ردمه فاتصلت فاروس بالقارة الإفريقية .

جزيرة الرمل :

هذه الجزيرة الكبرى - جزيرة الإسكندرية - كانت تسمى (جزيرة الرمل) . يقول أبو الفداء فى « تقويم البلدان » .

« وللإسكندرية جزيرة الرمل ، وهى بين خليج الإسكندرية (ترعة المحمودية الحالية) وبين البحر المالح ، وطولها بقدر نصف مرحلة ، جميعها كروم وبساتين وترابها رمل نظيف ، حسن المنظر ، وخليج الإسكندرية الذى يأتيها من النيل من أحسن المتنزهات ، لأنه ضيق مخضر الجانبين بالبساتين » .

ويرجع هذا الوصف إلى القرن الخامس الهجرى ، أى فيما قبل عصر القبارى

بنحو مائتى سنة ، كانت الإسكندرية خلالها موضع اهتمام ولاة مصر ، على مختلف الدول الحاكمة ، وهى أهم ثغور الإسلام ، وكان لابد من العناية بخليجها الذى هو شريان الحياة فى الإسكندرية على النحو الذى وصفها به أبو الفداء ومن جاء بعده

ووصف أحد رجال القرن السادس الهجرى مكانا بظاهر الإسكندرية يعرف بالقصرين ، وهو فى أرض رمل ، وكان مكانا للنزهة يجتمع به فى الصيف أهل الإسكندرية فيفرحون ويمرحون ، قال أحد الشعراء فى هذا المكان :

سلام على (القصرين) من جانب (الرمل)
سلام مشوق للديار والأهل

يحن إليها كلما هبت الصبا
ويشتاقها شوق المحب إلى الوصل

منازل قوم شتت الدهر شملهم
وكم مثلهم قد شتت الدهر من شمل

أما عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ — وقد زار مصر والإسكندرية — فقد رأى التفاح فى مصر أحمر جداً ، وحلواً للغاية ، وصغيراً فى الحجم ، وله رائحة تفوق المسك ، وبخاصة ما كان يزرع منه فى الأسكندرية فى بستان يقال له (بستان القطعة) كما رأى فى مصر نخلا كثيراً جداً .

وهكذا كانت منطقة شرق الإسكندرية ، وهى التى لا تزال حتى الآن تعرف بالرمل ، عامرة بالقصور والمتنزهات والفاكهة ، فى هذه المنطقة من رمل الإسكندرية ، كان يتمع بصفة إجمالية بستان القبارى وكان ماؤه من النبع — على حد قوله هو عنه — يكفيه ويكفى استمرار الزرع فيه .

وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن عطاء الله السكندرى فى (لطائف المنن) عن سيرة أبى العباس المرسى الذى توفى بالإسكندرية بعد القبارى بنحو ربع قرن من الزمان فقال إن أحد الصالحين دعا أبا العباس المرسى وصحبه للتنزه فى بستان له بالرمل ، وكان الوقت موسم التوت .

ومن هذا كله يتبين لنا أن هذه المنطقة كانت عامرة بالبساتين والفاكهة ، من كل زوج بهيج، كما أن بعض الصالحين كانوا يقيمون بشرقى الإسكندرية أى فى منطقة الرمل هذه، منهم الشيخ عبدالرحمن المغربى.

وداعا للحرام :

ولما كان القبارى يتحرز من الحرام فى كل شىء ، فقد خشى أن يكون العاملون فى خليج الإسكندرية ممن سخرهم السلطان فى حفره وتطهيره ، فكيف يشرب منه ويسقى زروع بستانه، والأجراء ساخطون؟.. حرام.

ثم .. عندما امتد العمران إلى هذه المنطقة وكثرت المتنزهات ، أخذ أهل الإسكندرية يقصدونها للتنزه ، ولا سيما فى الربيع وغيره من المواسم ، كما أن الإفرنج الذين كانوا يستوطنون الإسكندرية إذ ذاك كانوا يغشون هذه المنطقة بنسائهم حاسرات سافرات، فلا يستطيع المتعففون ، ومنهم القبارى كف النظر عنهن ، لهذا عزم على ترك هذه المنطقة ، خشية النظر إلى نساء الأوروبيين.

وأخيراً كانت فترة من الزمن جف فيها ماء الخليج ، وأهمله الولاة ، فلم يطهروه ولم يحفروه ، فذبل الزرع ، وعادت المنطقة صحراء جرداء يمر بها العابرون فتتملكهم الوحشة، بعد أن كانت عامرة بالحياة والخضرة .

فى هذا البستان الشرقى كان يعمل القبارى بيده : يغرس الشجر، ويصلح الزرع ويرويه ، ويجنى الفاكهة، يأكلها طازجة ومقددة ، ويتصدق من بعضها على الجيران والمحتاجين وعابرى السبيل، ولا يبيع منها شيئا .

هنالك كان يجنى التين والرمان والعنب والفول والشعير والقبار وينتفع بكل منها على طريقته الخاصة . وعلى ضوء تجاربه فى الحياة، كفلاح يعيش من كسب يده ومن محصولات بستانه :

العنب . . كان وفيراً إلى حد يدهش معه الناظر ، وكان يتخذ منه الخل والعقيد والزبيب ، وإذا طبخ العقيد كان يغسل يديه وينظفهما جيداً ، خشية البلل بماء العنب ، فلما رأى الناس أرباب الكروم يبيعون الأعناب لغير المسلمين، ليصنعوا منها الخمور عزم القبارى على قطع الكروم من بستانه من جذورها، ولكن سرعان ما رجع إلى رأى الفقه فى ذلك، فتوقف عن القطع، إذ هو إضاعة محققة للمال، من أجل فساد موهوم ، وظل سنة على ذلك، وهو فى صراع بين الإبقاء على أشجار العنب هذه وبين القضاء عليها، ثم تأخر الفيضان ، وجف الزرع، فواتته الفرصة التى كان يرجوها ، فراح يقطعها بعروقها ، ويجد اللذة بقطعها أكثر من اللذة بقطفها ، وفى ذلك يقول :

«وعقدت على الأنشيه (أى شجر العنب) زرجونا (أى يغطيه سماداً) فوجدت الراحة بعدمها ، وعوضنى الله عن تلك الثمار بالشعير والفول».

والتين . . كان كثيراً أيضا ، وقد عرفته الإسكندرية قديما على مر العصور، ولا يزال من الشهرة بحيث اشتهرت به جزيرة فاروس التى عرفت فيما بعد برأس التين ، لكثرة أشجار التين بها ، ويكثر أيضا فى منطقة العجمى والدخيلة غرب الإسكندرية وفى كرموس فى جنوبها ، وكرموس بالتركى يعنى التين الردىء.

وإلى عهد قريب يرجع إلى نحو مائة سنة كانت أشجار التين ممتدة على جانبى طريق الحرية فى الحدراء (الحضرة) ، وسيدى جابر ما بين الترامين إلى الشرق، فكان القبارى يقدد التين فيجف ، وهو كما يقول ابن المنير «نادر فى بلدنا أن ييبس»، والتفسير العلمى لذلك هو جفاف منطقة الرمل وخلوها من الرطوبة ، مما يساعد على يبوسة التين والانتفاع به فى الشتاء .

والرمان كان يتخذ منه العسل والعقيد ، ويستعمل من عسله اللزيق ليستغنى به عن العسل ، وهو ما نعرفه فى أيامنا هذه بـ (الجيلى)، وهو سهل الهضم خفيف على المعدة ، زاخر بالعناصر الغذائية المفيدة للجسم .

والشعير . كان يطحنه، وكان إذا أراد عمل الخبز منه لا ينخله، تحرزا من الترف ، بل كان ينفخه نفخا ليطير بعض سفاه ، واستند فى ذلك إلى حديث شريف ، كما سأل الأطباء فأقروه على ذلك لما فيه من فوائد .

وكان فى البستان أيضا **نخلات باسقات**، طال عليها الأمد وورثها عن أبيه، وكذلك كانت توجد إحدى شجرات **السدر** (أى النبق) ، فقد ترك سدرة هناك ، لم يتعرض لها ولا لثمرها ، وكان كل ما تثمره يسقط على الأرض ، لأنه لم يجد هذه الشجرة فى البستان أيام أبيه وهى التى - بعد وفاته بعام واحد - قد تكون السواقى قد أمدتها بالماء ، فترعرعت ونمت ، أثمرت ، وقد عاهد الله على ألا يدخل طعاما فى جوفه قط إلا إذا خلا تماما من كل شين من حرام . أو شائبة من ظن .

ويظهر أن للفول والشعير معه قصة ، ولكن مكانها أو مكانهما ليس هنا فى البستان الشرقى، وإنما هناك فى البستان الغربى . فلننتقل معه إلى هناك .

تطهير الخليج

ذكر المعنيون بتاريخ خليج الإسكندرية وتطوراته أن تطهير هذا الخليج وحفره قد حدث مرتين ، إحداهما فى عهد الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ ، والأخرى فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤هـ ، ولكن فاتهم ماذكره ابن المنير فى كتابه عن شيخه القبارى ، ولاسيما فى سنة ٦٤٦ هـ إذ كانت هذه السنة نقطة تحول جديدة فى حياة الإسكندرية ، انتقل عبرها من بستان إلى بستان ، من الشرق إلى الغرب ، من الشباب إلى ما بعده حتى الممات ، فكان كأن عبر جسراً إلى الفترة الحاسمة من حياته ، وهى الفترة الثرية بجلائل الأقوال والأعمال ، الحافلة بالحكايات والنوادر ،

الزاخرة باللقاءات مع الملوك والأمراء والجنود والفقهاء ، المرغوب فيهم والمرغوب عنهم من الإنس والجن على السواء .

يقول ابن المنير :

« ولما أصلح الخليج (خليج الإسكندرية) سنة ٦٤٦ هجرية بأعمال مشهورة ، بطل الشيخ تلك السنة تدوير الساقية، وأنشأ المكان الغربي في المباح ، ووجد هناك عينا فزرع عليها شجراً وبنى حوشا للسكن ، وعزم على الانتقال إليه بالكلية ، فلما بطل ذلك العمل ، وعاد الأمر إلى ما كان قديما عاد » .

من بعض مفاهيم هذه العبارة تتضح أمامنا عدة أمور منها :

اولا : أن تطهير الخليج لم يكن مما يريده القبارى ، فتوقف عن استعمال الساقية للزرع ، واستعد للانتقال إلى غرب المدينة .

ثانيا : أن السبب في توقفه عن الزرع في هذه السنة يرجع إلى أن حاكم الوقت قد سخر الناس في إصلاح الخليج ، مما ترتب عليه ظلم لهم ، فلا يحق له في نظره أن ينتفع بماء يجرى إلى بستانه، وفي إجرائه عسف للعاملين فيه .

ثالثا : لم يذكر لنا ابن المنير في عهد من من ملوك بني أيوب ، تم تطهير الخليج ، ولكننا نعلم أن ذلك كان في سنة ٦٤٦ هـ أى قبل وفاة الملك الصالح بسنة واحدة ، وسيرى القارىء في الموضع المناسب أنه لم يهتم بزيارة واحدة في حياته للإسكندرية . ومع ذلك كان يوليها عنايته واهتمامه، ثم إنه علم بما يعتزمه القبارى من مغادرة الديار المصرية، للخلاص من الحرج الناجم عن الخلاف بين الفقهاء في مسألة إصلاح الأرض البور وتملكها فأنصت الملك إلى الشخص المتطوع القادم عليه بهذه الرسالة أيما إنصات ـ وقلما كان يفعل ذلك ـ وأذن للقبارى بإصلاح الأرض التي اختارها بغرب المدينة ، وأنشأ عليها بستانه منذ هذه السنة وعلى أثر تطهير الخليج ـ وقد شارف على الستين من عمره في تلك السنة .

هذا بالإضافة إلى أنه كان قد ضاق ذرعا بمناظر النساء الأوروبيات يطرقن المتنزهات برمل الإسكندرية ، مما يثير الفتنة والنظر المريب اليهن ، والعين تزنى أحيانا كالجوارح ، إذا خرجت عن الحد المباح للنظر .

على أن (الهروب) من الشرق إلى الغرب إنما جاء من القبارى كعمل إيجابى لاسلبى ، فهو الرجل الحريص على دينه ، إلى حد أنه كان يخشى أن يتناول قطرة من ماء فيها شائبة من الحرام الناشىء عن ظلم العباد ، وإلا ترك الديار المصرية كلها ، ورحل إلى ماوراءها طلبا للنظافة والنقاء .

وليس أدل على ذلك من العبارة التى تلى النص المذكور آنفا وهى تقول :

« وكان يقول رحمه الله : إن أعسفوا (ظلموا) الناس فى عمله (أى إصلاح الخليج) مرة أخرى ، تركت لهم مصر ، فمالى فيها سوى هذه القطرة من الماء ، فلا أقل من أن تكون نظيفة بعض النظافة » .

هجرة :

ومهما يكن من أمر فقد انتقل القبارى إلى غرب الإسكندرية فى مكان مباح بعيد عن الشبهة والريبة ، ينشد العزلة عن الناس ، والخلوة إلى الله ، مهتما وجادا فى البحث عن اللقمة الحلال ، والماء النقى الطاهر ، الطاهر من تسخير الحاكم الظالم للعامل المغلوب على أمره ، ولو كان موضوع السخرة عملا نافعـــا لجمهور الناس .

على أن هذه الفترة هى أخصب فترة فى حياة القبارى ، فقد كانت (هجرة) جديدة منه ، خصوصا إذا ذكرنا قول النبى عليه السلام حين سئل عن معنى الهجرة فقال : «أن تهجر السوء» ثم سئل : فأى الهجرة أفضل؟ فقال «الجهاد» .

وهذا مافعله القبارى عندما هجر مناظر الفتنة ، وهجر منطقة الماء الملوث

بالمظالم ، ولو كانت عامرة بالبانين والمتنزهات ، وفساكهة حسان ، ترفع عن الدنايا ليجاهد نفسه ، ويعكف على العبادة الخالصة لله رب العالمين ، وكأنى به بعد (الفتح) عليه بأسبابها قد بدأ (الجهاد الأكبر) ، ولعله كان يتمثل قول نبيه العظيم وقد عاد إلى مكة وهو يقول « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا : وما الجهاد الأكبر يارسول الله ؟ ، قال : « جهاد النفس » .

متى انتقل القبارى من شرقى الإسكندرية إلى غربيها ؟ ولماذا ؟ .

لقد كفانا ابن المنير مؤونة البحث فى الإجابة على هذين السؤالين إذ قال: إن خليج الإسكندرية قد امتدت إليه يد الإصلاح سنة ٦٤٦ هـ ، وفى هذه السنة أبطل الشيخ تدوير السافية فى بستان الرمل » وأنشأ المكان الغربى فى المباح ، ووجد هناك عينا ، فزرع عليها شجراً وبنى حوشا للسكن ، وعزم على الانتقال إليه بالكلية ، فلما بطل ذلك العمل (فى الخليج) ، وعاد الأمر إلى ما كان قديما عاد» .

وقد سبق أن رأينا أنه بلغ من العفة والشجاعة وحرية الرأى والجهر بالحق لدرجة أنه هدد حكام عصره بترك مصر كلها إذا هم رجعوا إلى سابق عسفهم بالرعية وتسخيرهم العباد فى تطهير الخليج .

وفى الوقت نفسه كان صاحبنا يعتزم الاعتزال عن الناس والتفرد والتوحد، بعيدا عن المنطقة التى كان يتردد عليهـا الأجانب ونساؤهم عاريات ويقول فى ذلك صراحة .

« وزنت الأحوال بميزان الاعتبار فوجدتها لاتصلح إلا بالعزلة » .

ثم يقول بعد ذلك مستطردا :

« علم الله منى أنى أوثر الوحدة فى الحياة وبعد الممات . »

وسنرى فيما بعد كيف أنه كان يؤثر الخروج إلى البحر بمفرده ، متأملا فى عجائبه وغرائبه ، متفكرا فيما وراء الحياة ، حتى لقد حدثته نفسه بإعداد مقبرته

التى كان كلما رآها أخذ يتذكر الموت، فيزهد فى الحياة .

وعلى كل حال نستطيع أن نستدل من عبارة ابن المنير على أن القبـارى قد اعتزم ترك بستان الشرق سنة ٦٤٦ ه ، حتى لقد أنشأ مسكنه فى الغرب بعد هذا التاريخ، بنحو ستة عشر عاما وظل هناك حتى توفاه الله .

القصر والدير

أما السكن الذى اختاره القبارى لنفسه فى غرب المدينة على الرغم من قوله إنه « أنشأه » فإنه كان قصرا قديما من القصور الخالية ، وأغلب الظن أنه يرجع إلى العصر اليونانى أو الرومانى ، وتخرب وتهـــدم وصار أطلالا حول بعض الأعمدة ، فعالجه القبارى حتى جعل منه مأوى له وسط «مواضع مهجورة وجبال وكهوف » كما ورد فى السؤال الذى وجهه إليه ابن المنير حين رآه يأنس بهذه الأماكن المتفرقة .

وكان هذا القصر يشتمل على عدة حجرات ، بدليل أنه عندما ظنوا أن هناك امرأة فى بيته ، أراد أن يشبع ميولهم فى حب الاستطلاع، ويبرىء نفسه من تهمة وجود أحد بالقصر ، فأخذهم بأيديهم ، وأدخلهم القصر « بقعة بقعة » على حد عبارته حتى لقد كانت بعض الثعابين تسرح فيها وأنجاه الله منها عدة مرات وذلك بفضل استعانته بربه واتكالة عليه اتكالا كاملا .

ويرى ابن المنير أن هذا القصر الذى كان يسكنه القبارى ، وورد ذكره كثيرا على لسانه ، كان فى الأصل ديرا قديما من أديرة النصارى ، وكان له باب قديم ، ويسمى « باب الدير، وهو من أصل وضع الجامع قديما موضع دير كان هناك » .

وهى عبارة غير مفهومة ، ولعل التحريف أو التصحيف قد اعتراهـا ، حتى اختل معناها ، ولكن مما لا شبهة فيه ، أن هذا القصر القـديم كان هو ذلك الدير القديم ، وله باب قديم ، ومنه كان القبارى يدخل إلى مسكنه ، وفيه كان مصلاه ،

وكثيرا ما كان يطلق ابن المنير على هذه البقعة كلها « ناحية الدير » .

مع شياطين الانس والجن

وكان مما غرسه فى البستان الغربى وأينع وترعرع النخل والكرم والشعير والخضروات، وكان فى بادىء الأمر يروى الشجر من نبع طبيعى ، ثم صار يستخدم الساقية التى يدورها الحمار ، كما أنه كان يجلب السماد للزرع من زبل الحمام، وقد اتخذ أوكاره فى جبل بعيد جدا فى الغرب ، ذكره ابن المنير وسماه « جبل الصيقل » ، وفيه مغارات مهجورة ، كان يأوى إليها اللصوص ، ومنها كانوا يهجمون فى بعض الليالى على العنب ليسرقوه ، ولكن الله تعالى كان يردهم على أعقابهم خاسرين، فقد حلفوا أنهم « كانوا يرون العناقيد فى ضوء القمر فيبسطون أيديهم إليها فلا يجدون شيئا » .

وفى ذات ليلة جاء اللصوص والبرد شديد قارس ، واقتحموا زرب « غيط القبارى » وسرقوا منه بعض الحطب ، فلما هموا بالخروج رأوا سورا قد ارتفع فى وجوههم إلى السماء ، لا يستطيعون عبوره أو اقتحامه ، فتركوا الحطب ، ثم فتح الله لهم فى هذا السور العالى ثلمة، فخرجوا منها، وحدثوا زملاءهم بما رأوا فقال بعضهم لبعض : « هذا يكون غيط رجل صالح »

و مع ذلك فقد جعل الشيخ القبارى حول القصر - أو الدير أو السكن ومن حوله البستان - سورا أو سياجا من سعف النخل، أو أغصان الشجر ، ولا يرمى بذلك إلى تخوفه من قطاع الطرق أو اللصوص وما كان أكثر عبثهم فى هذه المنطقة بالممتلكات والأرواح - فقد كان اعتماده دائما على الله ، ونجاته وسلامة زرعه موكولة إليه وحده كما رأينا فى بعض ماسبق ، ولكنه كان يقصد بإقامة السور أن يتفادى أسباب النزاع سواء مع الحاكم أو الجار ، وفى هذا يقول ابن المنير عنه:

« وكان يتحرز فى تثبيت ملكه لما هو بيده من الأملاك حذرا من المنازعة ».

هى إذن ظاهرة سلوكية ترجع إلى عقيدة راسخة فى نفسه وإيمان ثابت بأن حرص المؤمن على شىء إنما ينبغى أن ينبثق من دافع دينى ، ولهذا يقول ابن المنير :

« وكان رحمه الله يتعجب الناظر إليه من تحرزه مع مكانته وجلالته، وأنه يستحيل فى العادة أن يتجرأ عليه أحد، وكيف يتصور ذلك والملوك فمن دونهم يقفون ببابه، يرتشفون لذيذ خطابه ، ومع ذلك فلا يعمل هو إلا عدم ذلك كله، كما يعمل الضعيف العامل ، لليوم ولما بعد اليوم » .

وكان الشيخ القبارى كريم النفس سمحاً جواداً، يتصدق على الناس كما يتصدق على الطير ، فقد كان على بعض حدود بستانه نخلة عالية لم تمتد يده يوما إلى ثمارها، وإنما تركها للطيور تأكل منها كما تشتاء ، وكان يقول :

« كما أباح الله للطير أموال الناس، أباح للناس دمه ».

العمل جهاد :

عاش زاهد الإسكندرية فى هذه البقعة المقفرة « فريدا وحيداً مع الاختلاف فى الأوقات وترادف الآفات ، وهو مصون، إلى أن لقى الله تعالى محروسا بعين عنايته».. من المفسدين والعابثين من الإنس والجن على السواء.

لم يعزل القبارى نفسه فى هذا الدير - كما كان يفعل المنقطعون - وإنما كان يزرع بستانه بيده أحيانا ، ويستأجر العمال أحيانا أخرى ، عندما كان يحس بعجز أو مرض اضطره إلى ذلك ، وإلا فإن عمله بيده هو (اليقين) ، وما عداه (ظن)، كما كان يلتقى فى مسكنه أو بستانه أو خارجها من يقصده للزيارة، للتحدث فى أمور الدين والدنيا، من ملوك وأمراء وفقهاء وغيرهم .

وكان مع ذلك يخرج -لبعض شأنه بائعا وشاريا- إلى سوق المدينة ، كما يخرج سائر العباد، فيظهر فى (الميدان) بدابته ، قادما بها من مكانه الغربى، لشراء ما يريد من تجار الإفرنج المقيمين بالمدينة ، فتلتف جماهير الناس حوله ، وقد ذاع بينهم صيته ، واشتهر أمره بالتقوى والعبادة والجرأة فى الحق وتعاليه على الملوك والولاة والجنود ، وعرفوا عنه الزهد والترفع عن الدنايا ، والتحرر من الحرام أو ما يشوب الحلال، فجاؤا بدافع حب الاستطلاع ليروه، ويسمعوه، لا على أنه بشر من البشر ، ولكن على أنه صاحب كرامات خصه الله بها، فإذا ما تكاثر الناس حوله ، تبسم لهم ولاطفهم ، وبش فى وجوههم ، ثم راح يرجوهم بأدب أن يتفرقوا عنه ،حتى يفرغ من أمره مع الباعة والمشترين ، ويقول لهم: « أخشى من انشغالى بحضوركم أن أغلط فى حساب أو أخل بشرط لا ألقى فيه بالى » تواضعا منه لله ، وتخلصا من تجمهر الناس حوله بلباقة وحذاقة .

مع الطبيعة :

وكان القبارى - منذ صباه إلى أن توفاه الله - يحب الخروج ، تارة منفردا ، وتارة أخرى مع غيره ، يخرج إلى الجزيرة (جزيرة رأس التين طبعا) مع رفيق له ،ويمضى إلى مسافات بعيدة غربى مسكنه بغرب المدينة، إلى الجبال والمغارات والكهوف ، وكثيرا ما كان يحمل شبكة الصيد ، ويمضى بها إلى ساحل البحر فى وقت مبكر من النهار، وكأنه فى ذهول ووله ، ولا يدرى شيئا عن نفسه: شارد اللب ، غائب الفكر ، فلا يعود إلا حينما تحين صلاة الظهر ، بعد أن يكون الدير وراءه شرقا بمقدار مرحلة .

ونلمح من ثنايا كلمات القبارى أحيانا أنه كان يعتزم العزلة الخالصة عن الناس فى جبل بعيد جدا غربى الإسكندرية ، لعله (جبل الصيقل) الذى ذكره ابن المنير ،

أو لعله ربوة عالية غيره ، تطل على ساحل البحر .

يقول : « وكنت عزمت على ألا أتسبب (أى أتكسب للمعيشة) بزرع ولا بغرس، وأن أحصل هذا الجبل- يشير إلى الجبل الذى فى الغرب من بستانه - فأبتنى مسجـــدا مرتفعا على تلك الطوبة (أى الصخرة)، - ويشير إلى صخرة مرتفعة فى الجبل مطلة على البحر قدر ثلاث قامات - ، وقنعت نفسى بشبعة من الشعير فى كل يوم ، فبحثت عن ملاكه (أى الذين عندهم الشعير) ، فوجدت بعضهم غائبا فصدنى ذلك عن شرائه ، وكان لى فى هذا الموضع (أى الذى اختاره للبستان والمسكن) رزق مقسوم ».

وهكذا يرى القبارى أن الله تعالى هو الذى ألهمه اختيار هذا المكان من غرب الإسكندرية ، ليجعل منه مأوى يسكنه ومزرعة يعيش من ثمارها ، وكان يفضل كثيرا هذا الجبل على غيره من الأماكن، ويرتاد تلك الصخرة النائية ، ويقول عن هذا الجبل « هو بجانبى ولى مدة ستين سنة ما وصلته ».

أما الصخرة فقد انهارت وتفتتت على الرغم من صلابتها ، فى الجمعة التى مات فيها القبارى ، - حسبما رواه ابن المنير - حتى أن الخرنوب وسنابل القمح والشعير وثمار الفاكهة من نخيل وكروم وغيرها قد توقفت كلها عن النماء فى السنة التى مات فيها .

وكان من عادته أيضا الخروج إلى ساحل البحر وإلى ضفاف خليج الإسكندرية ليصطاد السمك أو ليشترية من الصيادين ، أو ليسقى دابته ، وكم كان يتمنى لو وكل أمره إلى نفسه أن يمتد به السير إلى ساحل البحر يوما كاملا بعيدا عن العمران فيغتسل فيه استعدادا للقاء ربه ، ثم يمضى إلى إحدى المغارات النائية ، فيصلى ويسلم روحه إلى بارئها .

اصلاح البور :

ومن أجل هذا، اختار القبارى لنفسه قبره البعيد ، إمعانا منه فى حب العزلة وإيثار الوحدة ؛ فلما اطلع بنفسه على أقوال الفقهاء، وجد الخلاف بينهم شديدا فى مسألة حق الفرد فى إحياء الأراضى البور وتعميرها ، فمنهم من قال بالتحريم ؛ ومنهم من قال بالحيل ، ومنهم من اشترط موافقة الحـــاكم ، فاعتزم الخـروج نهائيا من الديار المصرية بأجمعها ، لولا أن كلم أحدهم الملك الصالح فى أن يبيح للقبارى استصلاح الأراضى التى هو بها ، فأجابه إلى طلبه على الفور ، ولم يكن القبـــارى قد طلب الإذن بذلك ، ومع ذلك استطاب المكان الذى هو به مقيم ، ولم يبرحه ، واستبعد فكرة الخروج من مصر ، واستمر فى إصلاح الأرض وزراعتها ، وإحياء البور ، وتعمير المهجور منها ، حتى لقى ربه وهو عنه راض .

وعندما أحس بقرب منيته وذلك قبل وفاته بيومين، سأل بعض من كانوا يعتادون زيارته والتحدث إليه والتعبد معه، فقال لهم، وقالوا له:

- هل ترون فى النخل شيئا أخرج ؟

- لا

- هل ترون فى الخرنوب شيئا أخرج ؟

- لا

- هل ترون فى السنبل حبا ؟

- لا

فقال فيما بينه وبين نفسه :

« رحل الرزق مع صاحبه»

ومات بعدها ، وأخذ الزرع فى الذبول، والضرع فى الجفاف، حتى قال ابن المنير:

« مافى بستان الشيخ من نخل وشجر لم يثمر حبة واحدة سنة وفاته »

وترك من حطام الدنيا بعد وفاته من الأثاث مالا يقام له وزن، وكأنى به كان يتمثل بقول النبى عليه السلام «نحن معشر الأنبياء لانورث» وقوله «العلماء ورثة الأنبياء وما يتركونه من بعدهم صدقة ».

فهل ترك القبارى بعد موته شيئا يزيد على خمسين درهما فبيع فى المزاد بعشرين ألفا ؟ . . لا لشىء إلا التماسا للبركة منه . . حتى بعد موته.

— ٣ —

الشعر السياسي

خصائص معيشته

إذا ارتفع الإنسان عن المستوى الحيوانى ولم يعد مبلغ همه فى الحياة الدنيا أن يأكل ويشرب وينام ويتناسل كالأنعام ، هداه الله إلى دستور يقيس عليه كل صغيرة وكبيرة فى سلوكه مع نفسه ومع الناس ، ... هكذا كان القبارى

العابد الموزون :

كان « احداً من أهل الله ، لا إفراط ولا تفريط ، خير الأمور عنده الوسط ، وليس من الوسط أن يتهاون فيما يأخذ ويدع ، ولكن الوسط هو الخير كله من غير تنقص أو تزيد ، ومن غير تهاون فى أدنى شبهة من حرام أمره الله أن يجتنبه ، ومن غير تقصير فى إتيان أى أمر مفروض عليه أن يستجمله ، ولا يهمه بعد ذلك إن كان الناس يفعلون هذا أو ذاك ، وقد جرفتهم الدنيا بتيارها ، فلم يعودوا يميزون بين حلال أو حرام ، وحتى إذا ميزوا بينهما تهاونوا ، ودخلت الفتنة عليهم من أقطارها وشاعت الشرور ، وتزايد الأشرار .

أما القبارى ــ عليه رحمات الله سابغات ــ فقد كان يعيش فى هذه الدنيـــا ، غير ناس نصيبه منها ، ولا متشدد على نفسه فى استحلال الطيبات من الرزق . كانت معيشته غاية فى اليسر والبساطة ، ولا تعقيد فيها ولا مروق : يأكل ويشرب ويصوم ، يتعبد لله فى عمله بيده ، وفى معاملته مع الناس ، على هــدى وبصيرة من أمر دينه ، لم يكن فى انعزاله من السلبيين أعداء البشر ، أو الهــاربين بعاهاتهم وحرمانهم من المجتمع ، وكذلك لم يكن يتنطع فى تدينه ، ليتظاهر بالورع والتقوى ،

ولا كان يلبس المرقعة ، ولا يأتى الخوارق التى بها يسحر أعين الناس ، وإنما هى الحياة السهلة المنبسطة المفتوحة الميسرة ، لا رهبانية فيها ، ولا أساطير تغلفها وتحجبها عن حيوات سائر الأفراد فى هذا المجتمع .

رأينا أنه كان من أهل بيت ، فيه اليسار ، والحال المستور : فقد ورث عن أبيه بستان الرمل بداره ، وعاد هو فأنشأ بستان الغرب ، ويحصد ويجنى ويصلح ما فسد منه ، ويخرج إلى الناس غير مبغض لهم ولا كاره ، أو حاقد على أحد ، فلم تكن ثمت عقدة خبيثة تدفعه إلى سلوك معين يشذ به عن الناس ، ولا كان حب التظاهر باللحية الطويلة والعمامة الخضراء والمرقعة المهملة ، هدفا يرمى إليه ، ليخدع المعاصرين له ، بل كان رجلا سويا من الأسوياء ، صفا قلبه لله وعرف حقه عليه فى نفسه وفى المجتمع ، فالتزم أوامره واجتنب نواهيه ، وكان فى التزامه صادقا ، عن عقيدة كامنة ، وعمل ظاهر للعيان .

ميزانية للمنزل :

كان عابداً زاهداً يزرع ويجنى ويصطاد ويتجر ، عالى النفس صاحب عزة وكرامة ، عفيفا متعففا عن السؤال ، ولو كان المسئول هو سلطان العصر .

كل ما فى حياة القبارى يدعمه سند قوى من الشرع ، وكأنه قد وضع نصب عينيه قول النبى عليه السلام : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » كل ما فى معيشته قائم على أساس من الدين فإذا لم يجد فرجا من ضائقة أو حـــلا لمشكلة ـ ولو صغرت ـ ترك وزهد وابتعد ، وأجره على الله .

أصابه الله بفقدان ثلاث من الحواس : السمع والذوق والشم ، ومـــا كان ذلك ليحمل نفسه على كراهية الناس ، أو سخط على المقادير .. بل صبر .

قامت معيشته على نظام دقيق ، فقد وضع ميزانية معقولة لمعيشته ، وقسم ما

كان يدخل عليه من التجارة والزراعة إلى أربعة أبواب :

١ ـ القوت اليومى ٢ ـ الملبس ٣ ـ العلف ٤ ـ النفع العام

تلك هى حياة زاهد الاسكندرية وهى كما ترى ممكنة وميسورة وسهلة غير معقدة، لأنها قائمة على نظام سوى غير شاذ ولا متكلف ، وإنما هى شأن الرجل المعتدل فى غرائزه وبوادنه ، الحريص على الاكتفاء بما قسمه الله له ، والتصدق على الغير فى سبيل الله ، بما أوجبه الله عليه للجار والسائل والمحروم .

كل هذا حرام:

وكان يكره الصيد من الميناء ، لكثرة النجاسة حول قوارب الصيد الراسية عليه ، ولازدحام الصيادين بها ، ولهذا حرص على ألا يشترى سمكا قط من الصياد إذا جاءبه من هذا المكان ، وأحيانا كان يحمل الشبكة على كتفه ويمشى بها إلى مكان متطرف جداً من العمران ، وهو ذاهل عن نفسه ، ليصيد السمك من مكان بعيد عن شبهة الحرام ، وكان يتشدد فى ذلك كل التشدد ، وسنرى فيما بعد كيف كان يتعامل مع الصيادين .

كان يزرع الكرم ويجنى منه العنب ، فيأكله ولكنه لم يكن يبيع منه شيئا ، خوفا من أن يستخدمه الشارى فى عمل الخمر المحرم ، فيكون هو سببا فى إشاعة الحرام ، وما كان ذلك ليمنعه من التصدق به على الجار والمحتاج والزائر ، ولكنه كان يتخذ منه الخل والزبيب والعقيد ، وكان معتاداً على غسل يديه عند الأكل ، ولكنه كان يبالغ فى تجفيف يديه ، خاصة قبل تصنيع العنب وبعده ، خشية البلل بماء العنب ، الذى قد يتحول إلى خمير يخامر عقله فيسكر ، وطالما كانت نفسه تحدثه بالتخلص من أشجار الكروم ، ولا سيما عند فساد أهل عصره ، فما لبث أن حقق الله له ما كان يتمناه ، فكان يجد اللذة فى اقتلاعه بجذوره ، أكثر مما كان يلتذ باقتطاف عناقيده .

السميط والغربال:

وكان لا يأكل الطير مسموطا وإنما كان ينتف ريش الدجاجة نتفا ، لأن السمط يجمد الدم فى لحم الطير ، فلا يزول عنه إذا طبخه ، فتنفر منه النفس الأبية ، ولقد سعد بهذا كل السعادة ، خصوصا عندما وجد فى الحديث الشريف أن النبى عليه السلام ما أكل سميطا قط إلى أن لقى ربه .

واعتمد على ماورد فى الحديث أيضا فيما يتعلق بغربلة دقيق الشعير قبل خبزه ، لهذا كان القبارى لا يغربل الدقيق ولا يستعمل الغربال قط فى هـــذا الصدد ، ويكتفى بنفخه ليتطاير ما فيه من السفا ، طاعة لأمر رسول الله من جهة ، وتأكدا من أن ذلك مما ينصح به الأطباء من جهة أخرى .

ولم تكن للقبارى مائدة للطعام ولا كان يستعمل أدوات المائدة من أطباق وملاعق وأشواك وأكواب ، فهذه كلها بدعة فى نظره ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، لهذا كان لا يأكل إلا فى القصعة أو ما يشبهها ، ويجد الرضى والمتعة إذا ما أكل الطعام الخفيف الذى لا إسراف فيه ولا ترف ، حتى لقد كان يتبسط فيقول لتلميذه ابن المنير :

« أكلت البارحة لونا غريبا » .

فيسأله عن هذا اللون الغريب من الطعام فيقول :

« صببت فى القصعة من الإبريق ماء قراحا ووضعت فيه الكسر ، وما كان هذا اللون إلا ألطف من الألوان البلدية وأنقى » . وكان ذلك الإبريق فى أغلب الظن من الفخار لا من المعدن ، وقد تزايد الناس فى شراء هذا الابريق الذى كان يتوضأ فيه ، بعد وفاته ، رجاء البركة ، كما يقول أبو شامة .

كان هذا إذن بعض الطعام الذى يؤثره الرجل ويفضله إمعانا منه فى ضبط النفس وكبح جماحها ، وتعويدها على الصعب من الطعام ، حتى لا تطغى وتودى بصاحبها إلى الهاوية .

أما القدور فكان يشبهها بخوابى الصباغين ، كلما وضعوا فيها العقاقير والكيماويات اسود باطنها بسبب تراكم الأملاح والزيوت وغيرها ، فكيف يكون فى الإمكان تنظيفها منها ، وإعدادها للطعام الخالص النقى ؟

ومما يحكيه ابن المنير عن القبارى أنه كان يأكل الفول أربعين سنة وكان الناس يطلبونه منه على سبيل البركة فيعطيهم منه بعض الحبوب ، فكانوا يضعونها فى أمتعتهم ، وكانت لهم فى ذلك نوادر عجيبة ، حتى لقد كان من النادر أن يخلو صندوق تاجر من هذا الفول ، فما أسرع ما ترك القبارى الفول وزراعته ، وصار يزرع الشعير ، ويقتات منه ، استناداً إلى أقوال الفقهاء من جهة ، وإلى أقوال الأطباء من جهة أخرى .

حتى الماء :

ومن العادات التى التزمها القبارى ونشأ عليها منذ الصبا الامتناع عن الشرب من صهاريج السبل ، منذ كان مقيما بالرمل أو فى الغرب حيث كان يوجد (صهريج الطويل) الذى يشرب منه الناس مقبلين على مائه العذب البارد ، أما هو فلم يشرب منه قط ، وكذلك امتنع عن الشرب من مياه الميازيب ومياه آبار المساجد ، ويتحرز من الشرب والرى من ماء الخليج ، حتى إن دابته كانت تستسيغ الشرب من ماء البحر ، وكأنما كانت هى الأخرى تتعفف من الحرام بالتبعية .

وغالبا ما كان يشرب القبارى من النبع الطبيعى الذى فى بستانه الغربى ،

وهو مطمئن إلى أنه ناء عن العمران ، بعيد عن مياه السواقى والمجارى أى السوابح كما كان يقال .

والخلاصة أن الرجل كان ـ مع تشدده هذا فى طلب الحـــلال من المأكل والمشرب ـ من أهل الكتاب والسنة ، معتدلا فى عبادته ، غير متبـع سبيـل الغلاة ، الذين يحرمون على أنفسهم ما أحل الله لهم من الطيبات تنطعا منهم ، وادعاء على الورع بما ليس منه .

الطبع بالتطبع

طبع الرجل جزء لا يتجزأ من شخصيته وتراثه، والقبارى كانت تغلب عليه طباع الخير والعزة والترفع وكان فى بادىء حياته يدعو للناس أحيانا، ويدعو عليهم أحيانا أخرى، وكان الله تعالى يستجيب له، فيجرى الخير على الأولين، ويحل الشر بالآخرين، وتأثر بذلك القبارى فاعتزم أن يكف عن الدعاء لأحد، أو على أحد، وفى ضميره الدعاء بالخير عامة.

الدعاء المستجاب :

دعا على زميله فى الدرس الذى بخل عليه بإعادة ما قاله المدرس بصوت عال، حتى يمكنه أن يسمع ويفهم، فأصابه ما أصابه من سلب نعمة التعلم، وعلم القبارى بذلك فأسف، وصار بعد ذلك لا يدعو - إلا فيما ندر - سواء بالخير أو بالشر.

ومع ذلك كان الناس يقبلون عليه، يلتمسون منه الدعاء لهم فيقول لأحدهم « للطالب ما يحتاج » ولآخر « ما أشتهى لأحد من أمة محمد إلا خيرا » ولغيره « أود لو كان الناس كلهم على الخير » وللبعض « أحب لكل أحد ما أحب لنفسى » وللبعض الآخر. « الدعاء النافع هو الذى يوافق القضاء فإن خالف القضاء نسخ الدعاء وثبت القضاء ».

ومن هنا نرى أن القبارى كان يحب الناس جميعا، ويحب لهم الخير جميعا بلا تفرقة، يحبه لكل من حوله، ويتعامل معهم على صفاء، سواء كان أحدهم من أمة محمد أو من غيرها،

فقد كان يتعامل مع تجار الأفرنج بالإسكندرية ، يشترى منهم ويبيع لهم ، ومن خلال دعائه الذى رأيناه تبين لنا أنه كان من طراز محيي الدين بن عربى فى قوله :

أدين بدين الحب مهما توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وأحاديث النبى عليه السلام كثيرة فى الدعاء، منها « الدعاء مخ العبادة» و«الدعاء يرد القضاء» ، و « السماء قبلة الدعاء » كما هو معروف. ودعاء العبد الصالح لصاحب الحاجة غير منكر ، ذلك أن دعاء المريض والمسافر والمظلوم مستجاب، وجاء فى الحديث « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » .

وقد عرفنا أن قبول الدعوة مرهون بالنقاء والصفاء ، والتخلى عن الحرام ، كما رأينا من توجيه النبى عليه السلام لسعد بن أبى وقاص .

مهما يكن من أمر فإن الشيخ القبارى كان لا يتورع من الدعاء للناس بالخير ، لأنه مفطور على حب الخير لهم ، وهذه صفة محمودة فيه ، جعلتهم يقبلون عليه ، وهو العارف بكل ماورد عن الدعاء من آيات كريمة وأحاديث شريفة ، بدليل أقواله لهم ، كلما طلبوا منه أن يدعو لهم ، فهو المؤمن الذى علم بتعاليم دينه وعمل بها .

على أن القبارى قد صمم فيما بينه وبين نفسه على ترك الدعاء لهم أو عليهم ، منذ دعا على أحدهم فاستجاب الله له ، ولعل السبب الذى حدا بالقبارى إلى ترك الدعاء لهم حتى بالخير، هو رغبته فى اعتمادهم على أعمالهم، يتقربون بها وحدها إلى الله، فذلك أدعى الى القبول منه سبحانه ، فقد جاء فى القرآن « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وقال تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ماسعى ،

وأن سعيه سوف يرى »، وقال النبي عليه السلام : «يافاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا ، ياصفية عمة رسول الله اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا» وعلى هذا النهج السديد من التربية الاستقلالية ـ كما عرفناها عن الرسول الكريم ـ سار الشيخ القبارى ، وعلى هذا المنوال نسج ، وأخذ يوجه الناس إلى هذا الطريق بوصفه مسئولا عن هدايتهم وإرشادهم.

وقد سأله ابن المنير عن السبب فى توقفه عن الدعاء لأحدهم ، فقال: « يطلب أحدهم منى الدعاء بلسانه ، ويظهر لى من قرائن أحواله أن قلبه غافل ، وأن نفسه قاسية على نفسه ، فكيف أرق أنا عليه أو كيف أدعو بلا رقة » .

وجاءه يوما أحد أصحاب الملك الكامل ـ وهو فى أبهة وبذخ ـ وقد ربط ببابه فرسه وكانت تبدو عليه أمارات الرفاهية ، وسأله أن يدعو له ، فدعا الله له على العادة ثم سأله :

« ما للناس يتحدثون بأنك لاتدعو لأحد معين ، ويعتقدون ذلك ؟ »

فقال الشيخ القبارى :

« أحوجتنى لإقامة الحجة عليك ، ألست تعلم أن الدعاء هو طلب العبد الضعيف من الرب الرحيم ؟ » .

قال : بلى .

فقال : أيطلب العبد الضعيف من مولاه برقة أو بقسوة ؟

فقال : برقة

فقال : « ماوجدتها منك ، فبأى لسان أدعو ؟ وإن شئتم الدعاء باللسان فهو البندق الفارغ، خرّج منه ما شئت بلا قلب . »

فقامت عليه الحجة، وعاد صاحب الملك الكامل وصاحبه الذى كان معه ، وقد قدما على القبارى وهما يتضاحكان، ورجعا ، بعد هذا الحوار السقراطى التعليمى بدرس فى آداب التخلق مع الله عند الدعاء .

التحية الشرعية

وكان القباري يرد التحية بمثلها أو بأحسن منها ، حسبما تقول الآية الكريمة: «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها» أما إذا حياه أحدهم بتحية غير شرعية كقوله « كيف أصبحت ؟ أو كيف أنت ؟ أو مافعل الله بك ؟ » فكان يتعمد ألا يرد التحية . وسئل فى ذلك فأجاب بأنه قليل السمع وبأن مثل تلك التحيات غير شرعية ، فلا حاجة به للرد على صاحبها .

وكان يقول إن «اليهود هم الذين يتخذون تلك التحيات ، فكان أحدهم يعاجل بالعقوبة على المعصية ، فيصبح وقد مسخه الله ، وأصابه فى الليل بعقوبة على ماارتكبه من ذنب فى النهار ، وكانوا كذلك اذا أمسوا» ويعقب على ذلك بقوله: « وهذه أمة مرحومة ـ أى أمة محمد ـ وقد علمت تحية الإسلام ، فغفل الأكثرون عن رشدهم ، واستعملوا ما استعملته الأمة المذمومة ـ أى اليهود ـ» .

المصافحة

وللقباري رأى له أهميته فى المصافحة ، فقد تركها وامتنع عنها بعد أن كان مستمسكا بها ، لورود الحديث النبوى فيها ، ثم وجد فى نفسه أن أحدهم مقبول لديه ، وأن آخر غير مقبول ولا تنبسط له نفسه ، فرأى أن الخير كل الخير فى ترك المصافحة بالكلية ، راحة من جور النفس ، واعتمادا على مذهب مالك إذ قال: «ليس من عمل الناس » .

وكان صاحبنا أيضا عزيز النفس قوى الإيمان ، لا يعطى الدنية فى دينه ، يقف الملوك والسلاطين والوزراء والولاة والفقهاء ببابه ، ساعة وساعات ، يلتمسون منه الإذن بالتحدث معهم ، فكان يقبل أو يرفض من تلقاء نفسه ، وقد استفتى قلبه

والتمس الأصوب من ربه فيما يأخذ ويدع ، أما هو فما كان يقف بباب أحدهم ، ولا يلتمس منهم شيئا لنفسه ولا لغيره ، لا بالذات ولا بالوساطة ؛ وكان ينهر أحدهم إذا جاءه غير جاد ، ويخشى أن يضيع وقته معه فيما لا يفيد ، وكان لا يقبل الجليس المازح ، وإن كان يفرح بصغار الأطفال ، إذا جاؤوه ويداعبهم ويمنحهم مما يثمر البستان ، ولكنه لم يكن يرضى بالانفراد بالصبية متى أدركوا سن البلوغ ، حتى لا يعرض نفسه للشبهات والاتهامات .

الورع ممنوع :

وكان الرجل شديد الورع ، فإذا نسبوه إليه امتعض وأنكر عليهم ذلك ويقول : « الورع الذى يشيرون إليه أن يترك الإنسان الحلال المحض تقللا ، وأين الحلال ؟ علم الله أنى ماوجدته كما أشتهى قط ، الحلال المحض هو الذى لاتراه ولا تسمع به ، فهل تجدون أكثر من أن أمد يدى إلى البحر آخذ حوتا ، بلا آلة فيها الشبهة ، ومع ذلك فما نفسى بذلك طيبة ، لأن القوة التى بسطت بها يدى إنما نشأت من هذه الأقوات ، وهى مشتبهة ، يشبع الإنسان مما يأكل ، فأين الورع ؟ إنما هو تخفيف ، وأما التنظيف فما إليه سبيل ، فإن كان الأمر بهذه المثابة ، فما بقى للخلاص طريق إلا الاقتصار على سد الجوعة وستر العورة » .

ويتحدث صاحب «شذرات الذهب» عن القبارى الزاهد فيقول :ـ

« كان صالحا قانتا منقطع القرين فى الورع» .

أى أن صفة الورع كانت الغالبة على حياة القبارى ، وبها عرف بين الناس ، وسجلها له المؤرخون .

وقبل أن نشير إلى أننا سنتناول هذا الموضوع فى فصل خاص ، يجب أن نذكر من طباع القبارى أنه كان سريع الحفظ ، قوى الذاكرة ، عوضه الله بذلك عما سلبه من السمع والذوق والشم ، فكان يحفظ حفظا جيدا أحاديث

الصحيحين ، وهو صبي ، على اختلاف الطرق والألفاظ والعبارات ، وكان حفظه مصحوبا بالفهم ، ولم يكن مذهبه المالكي ليمنعه من الأخذ بما قاله أبو حنيفة ، وقد رأينا كيف كان يجمع بين العلم والعمل ، بين المنقول والمعقول ، بين الشرع والطب في مسائل الدنيا والدين، لاانفصام بينهما، ولاتفرقة بين العقيدة والسلوك.

خوفا من الظنون :

ومن طباعه أيضا أنه كان لايستخدم أحدا في أمر من أمور الدنيا ، مادام قادرا على إتيانه ومباشرته بنفسه ويقول :

«المباشرة يقين ، والاستنابة ظن ، واليقين أحب إليّ من الظن».

وكانت له دابة عالية ، ومع ذلك كان إذا ركبها تطامنت له ، فلما علت سنه ووهن عظمه ، وعجز عن ركوبها بنفسه كالمعتاد ، كان يأمر الخادم فيوطىء له بيده حفرة ويجيء ببعض أعشاب البحر على الساحل ، ويوقف دابته بقربها ، ويقف بجانبها ويركب ، ولكنه ماكان يبرح المكان ، حتى يأمر الخادم بأن يعيد الحشيش إلى ماكان عليه ، فذلك التصرف في نظره أولى من مساعدة الخادم له بحمله ، أو وضع ركبته ليركب عليها .

وكان القباري يعامل الناس بحسن الظن فيهم ، وسوء الظن في نفسه ، حتى يصل إلى درجة اليقين ، فلا يستريح حتى يزيل من نفوسهم ماقد يعلق بها من ظن أو ارتياب ، كما رأينا عندما أدخل جيرانه بيته ، ودار بهم فيه قطعة قطعة ، ليتأكدوا من أنه لايؤوي في داره امرأة أو أي أحد آخر .

ومع ذلك كان القباري صافي النفس ، قادرا على ربط مايجري أمامه ، بما يناسب الموقف من القرآن الكريم وكان عالما بتفسير الأحلام على ضوء الكتاب الكريم، ولم يعرف عنه يوما أنه ادعى علم الغيب أو قراءة الكف أو التنبؤ بالمستقبل ، وإنما كان يعرف حق الله عليه كما يعرف حدود الله ، فلا يتخطاها .

وتفسير الأحلام ليس بالأمر اليسير ، وإنما هو قدرة من المعبر أو المفسر على ربط الرؤيا بأمور كثيرة لاحصر لها ، ويلهمه الله بعد ذلك ما يجعله صادقا فى تفسيره ، وفى ذات يوم خرج وهو صبى لم يبلغ الحلم بعد ، إلى جزيرة رأس التين مع رفيق له عرف بالصلاح مثله ، وكان القبـــارى يومئذ صائما ، ولكن شاءت الأقدار أن يضيع مفتاح المكان ، فعاد الرفيقان ليلا فوجدا باب المدينة هناك مغلقـا ، فرجع إلى الساحل وأقبل عليهما الليـل ، واشتد بهما العطش ، فعرض عليه زميله أن يحضر له ماء من صهريج به ماء المطر فى (مسجد المؤيد) ، فرفض القبارى أشد الرفض ، وأبى كل الإباء أن يشرب من ماء صهريج سبيل ، وبات على عطشه ، ونوى الصيام لغده .

وكذلك كان يمتنع عن الشرب من ماء الآبار التى يدخلها مـاء السوابح أى ماء المجارى فى عصرنا الحديث ، ويقول «السوابح لها أحباس (أوقاف) ينفق منها عليها وهى صدقات» وهو يتعفف من الانتفاع بالصدقة .

وكان إذا صام أخذ معه بعض الماء من نبع بستانه ، عند الخروج إلى البلد ، حتى لا يلوث صيامه عند الفطر ، بالشرب من ماء مشوب بالشبهات فى نظره .

بسبب خطيئة واحدة :

وقد عرفنا فيما سبق أنه كان له خادم من أهل الصلاح والتقوى هو أبو الطاهر ابن أبى العز ، وقد خدمه نحو أربعين سنة ، فلما علم أنه قبل هدية من تاجر أعجمى شفاه الله فنذر لله أن ينفحه مما أعطاه الله طرده من خدمته ، وظل الرجل مع ذلك يتجرع غصة الحرمان ثلاثين سنة ، وهو يكتفى بالمجىء كل يوم ، ويظل واقفا على سور البستان ، للتمتع بالنظر إلى مخدومه ، ثم يعود آخر النهـار من حيث جاء ، ويحسبه أن يجيبه إلى أى خدمة يؤديها له ، فيأبى ويأبى ، ومع ذلك

كان يبره ويرعاه بالحطب والماء والزكاة ، ولما انقطع الشيخ فى بيته فى أواخر حياته ومرض مرض الموت مات الرجل من فرط تأثره ، فمالبث الشيخ أن لحق به إلى الرفيق الأعلى فى العام التالى على وفاته .

وكان لا يطلق عليه اسم الخادم ، ولا يؤذيه بذلك حاضرا أو غائبا ، حتى لا يجرح مشاعره ، بل كان يقول عنه : « الرجل » على عادة أهل الخير والكرم ، العارفين بأصول اللياقة المتحرزين من القول الجارح ، فى حقوق العبـــاد ، ولو كانوا يخدمون غيرهم ، مأجورين غير مأزورين .

حق الأجير :

ومع هذا كان إذا احتاج عمل البستان إلى أحد استأجر عاملا ، وكان يعجل له بالأجر قبل نهاية النهار ، عملا بقول النبى عليه السلام :

« أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه » .

وكان يستنكف أن يستأجر عبداً أسود فى أى عمل ، خوفا من أن يتناول أجره منه ، ثم لا يعطيه لسيده ، أو ربما أنه يكون قد عمل عنده دون إذن من مولاه ، وكذلك كان لا يستخدم أحداً من البدو ، إذ سأل عن مصدر كسبهم فقيل له : من غزو بعضهم بعضا واستحلال بعضهم مال البعض ، وقد كثر تعدى الأعراب على بستانه الغربى وقطعهم الطريق على الناس ، وسفكهم الدماء ، فى وقت انتشرت فيه الفوضى وعم الغلاء ، وندر العيش وابتلى الناس بالوباء الفاتك بالأرواح ، والمجاعات والزلازل وغارات القراصنة .

وكما كان الشيخ القبارى يتصدق على الجار وعابر السبيل ، كان يتصدق على الطير ويترك له بعض النخل يأكل منه كما يشاء ، كما ترك له سدرة أى شجرة نبق

بدعوى أنها لم تكن موجودة عندما مات أبوه ، وأنها سقيت من ماء الخليج .

وإذا كانت تلك هى بعض الملامح البارزة فى معيشته الدنيوية القائمة على العلم بأصول الدين وقواعد الطب ، فإن عبادته كانت على هذا النحو أيضا من الدقة والنظام .

الصلاة صلة

فقد كان قبل حلول وقت الصلاة يتأهب لها بكل جوارحه ، وآلة الميقات فى يده ، ـ ولم تكن الساعة قد عرفت بعد ـ يتحدث مع من يكون فى حضرته ، أو يمارس عمله فى البستان ، وذهنه حاضر ، ويظل يرقب الميزان أو البوصلة من حين إلى حين ، حتى إذا أيقن من حلول وقت الصلاة ، انقبض عن كل من حوله وما حوله وترك كل شىء ، وأقبل على مقدمات الصلاة ، كأنه فى حال من الوجد والهيام ، فيتوضأ وضوءا سابغا ، ويتوقف عن الكلام والعمل ويكف بصره ، حتى يأخذ مكانه من الصلاة ، فيصلى صلاة النوافل يتقرب بها إلى الله حتى يحبه ، ويمضى فى تسبيحاته حتى يقوم إلى الصلاة المفروضة ، لايلوى على شىء ، حتى يتمها ، ثم يصلى السنة المحمودة .

وقد راقبه ابن المنير فى هذه الأحوال فسأله :

« أراك عند الأخذ فى أهبة الصلاة لاتلوى على شىء ألبتة » فقال القبارى :

« أراقب نفسى إذا توضأت حذر أن يتفق حدث أو لمس ، ولا ألقى إليه بالا ، وأراقب العدو (إبليس) فإن العبد إذا تأهب للعبادة ، تأهب العدو للإفساد » .

ولما انقطع فى آخر لحظات عمره بالقصر أو الدير الذى كان يسكنه ، باع الدابة التى كان يملكها ، وباع ثمار القبار الذى كان قد جناه من البستان : فبلغ ثمن كل ذلك ثمانمائة درهم ، ولم يهدأ له بال حتى أخرج الزكاة عنها ليستريح ضميره ويطمئن قلبه ، فلما توفاه الله كان ماله قد استوفى ماعليه من الزكاة المفروضة فضلا من الله ومنة ،

تلك الحياة

من هذه الفقرات التي تحدثنا فيها عن حياة القباري يتبين لنا من تفاصيلها أنها حياة رجل صالح تقي، يعرف ماله وما عليه، ويستند في كل قول وعمل، وفي كل عبادة ومعاملة، على أسس شرعية، بحث عنها، وجدّ في طلبها حتى عرفها، وحرص على اتباعها بكل دقة.

وتلك الحياة على هذا النحو لا تزيد على كونها توجيهات المعلم المرشد، الذي أبى إلا أن يكون مثلا أعلى لغيره، ولمن حوله أولا وقبل كل شيء. صحيح أنه لم يجلس للدرس، ولا ذهب للوعظ، ولا انتقل إلى مسجد أو خانقاه أو رباط، ولو كان قد فعل ذلك لضاع كلامه في عالم النسيان.

ولكن شاء الله عز وجل أن يهيء له تلميذا وفيا مخلصا هو راوي سيرته، فسجل لنا هذه التفاصيل، على هذا النحو، لتكون للأجيال عبر الأجيال ذخائر في التربية والتعليم، يتناقلها بعضهم عن بعض. فيعلمها الأجداد والآباء للأبناء والأحفاد، كتطبيقات عملية لتعاليم القرآن والسنة، دون ابتداع شيء يضاف إليها، وإلا كانت الزيادة بدعة تضلل العقول، وتفسد العقائد، ومن ثمت ينطفيء بريق الدين الصحيح، وتطغى الزيوف على الصحاح، وتكون الفتن من هنا قد تمكنت من الأفراد والمجتمع، ويتآمر على الإسلام خصومه بتزييف حقائقه وتمييع جواهره،

وإذن كان القباري بهذا السلوك المتين الصلب حارسا أمينا على دينه، فاستطاع أن يصد عن حومته هجمات الخصوم، الذين كثيرا ما يأتون الإسلام من جانب ضعف يتلمسونه في أنصاره لينفذوا إلى الصميم.

— ٤ —

الحلال والحرام

التحرى والتحرز

« يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا »

قال ابن عباس رضى الله عنه « تليت هـــذه الآية عند رسول الله ، فقام سعد بن أبى وقاص وقال « يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة » فقال النبى عليه السلام :

« ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .

حلالا طيبا :

الآية الكريمة تحث على أكل الحلال الطيب ، والحديث الشريف يجعل استجابة الدعوة مقرونة بأكل الحلال الطيب ، وينفر من اللقمة الحرام ، ويضع أمام آكلها ما تستحقه من الجزاء .

وكلما بلغ المؤمن بتقواه حد الخوف من الله ، جعل المسافة بينه وبين الحرام أوسع ما يستطيع ، فلا يقربه ، ولا يحوم حول حماه ، مهما اشتدت به الأزمات الطاحنة ، وفى هذا يروى أبو هريرة عن النبى أنه قال:

« يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء ما أخذ ، من الحلال أم من الحرام ، فإذ ذلك لاتجاب لهم دعوة ».

وبهذا يكون الحلال مفتاح استجابة الدعاء من العبد ، أى أن الله يتقبل منه

عمله وعبادته بسببه ، وإلا فهو مستبعد من رحمة الله سبحانه وتعالى .

وأصحاب الخشية من الله إزاء الحلال والحرام إما متطرفون وإما معتدلون : أما المتطرفون فقد حرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم بدافع التنطع أو بدافع الحرمان ، فهم فى كلا الأمرين مقصرون فى حق أنفسهم إذ يقول الله سبحانه :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » ويقول « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

هم إذن كما يقول ابراهيم بن أدهم « أشبه بكلاب بلخ : إن أعطوا رضوا ، وإن لم يعطوا سخطوا » . ومهما يتمسح هؤلاء بالإيمان والزهد والتصوف والتقشف، فكل ذلك منهم براء .

أما المعتدلون فهم الذين غرس الله فى قلوبهم شجرة الإيمان ، فترعرعت وألقت ثمارها اليانعة ، سلوكا سويا فى معيشتهم وعبادتهم ، غير مقصرين ولا متزيدين ، يعملون بكتاب الله وسنة رسوله ، مترفعين بغرائزهم البشرية إلى مستويات تليق بكرامة الإنسان، من حيث البعد عن الدنيا ، والتماس الرضى من الله بالتقرب إليه ، فى حدود الطاقة الممكنة ، عن مجاهدة للنفس ، ومكافحة للشهوات .

طراز جديد:

والشيخ القبارى زاهد الإسكندرية كان طرازاً نادراً فى الزهد والترفع عن الدنيا ومتاعها ، وعلى هذا المنوال نسج حياته منذ الصبا ، ولعل ثقل السمع الذى كان يشكو منه هو أحد أسباب اعتكافه عن الناس ،فقد كان يحضر مجالس العلم ولكنه لم يكن يتمكن من السماع من الشيخ ، فكان يستعين ببعض زملائه ليعينوه على

العلم بإعادة الدرس عليه بصوت عال ، وبهذا تمكن من تحصيل ما أمكنه تحصيله ، وفى ذات يوم سأل أحدهم أن يعيد عليه ما قاله المدرس فنفر فى وجهه وتكبر عليه ، فحز ذلك فى نفس القبارى ، ومضى وهو مهموم مغموم إلى دار أبيه ، فصعد إلى غرفة خربة بأعلاها ، كان يخلو فيها ، وصلى ركعتين ثم بكى ، ورفع يديه إلى السماء يناجى ربه .

« ابتليتنى بحب العلم وثقل السمع ، حتى تكبر علىّ فلان اليوم ، وبخل بما لا يضره » .

ودعا عليه القبارى ، فلم يمض عليه شهر ، حتى سلب الله منه نعمة الإقبال على العلم ، وحلت عليه النقمة بما فعله بزميله ، ولعل زميله هـــذا قد نسى أو أنساه الشيطان أن كاتم العلم ملعون ، وأن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ؛ ولكنه الشيطان أخزاه الله .

التدقيق فى القول والعمل ، والتحرى فى التمييز بين الحلال والحرام ، والتحرز من إدخال طعام أو شراب فى الجوف إلا من أبواب الحلال ، والتيقظ فى معاملة الناس حتى لا يؤذى أحدهم أو يضره ولو بأقل القليل ، كل هذه هى الخلال التى انفرد بها القبارى ، واشتهر بها بين الناس ، ومن أجلها حرص تلميذه ابن المنير على إبرازها فى الكتاب الذى كتبه عنه كشاهد عيان ، معاصر لها بنفسه ، غير ناقل عن أحد ، أو مجامل لشيخه ، أو مبالغ فى حبه له ، بمنحه كرامات الأولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فى كل شىء

والقبارى لم يذم الدنيا ، ولم يسخط عليها ، مادام يمشى فى مناكبها بما يمكنه من السعى فى طلب الرزق ، وفى كسب العيش ما يعينه على العبادة ، ويغنيه عن الخلق

وإلا فبطن الأرض خير له من ظهرها ، إذا احتاج إليهم ، يقول:

« لا أذم دنيا تعين على الدين ، (يعنى على عدم الحاجة إلى الخلق) ، الموت ولا الحاجة إليهم » .

فهو ليس كذلك المخبول الذى حرم نفسه من التفاح ، فذهب يوما إلى دكان الفاكهى ، وأمسك بتفاحة ثم ردها وقال: « أيتها التفاحة موعدى وإياك الجنة »

لا .. ولكنه زاهد عن إيمان ، زاهد فى الشىء وهو منه على مد البصر ، زاهد فيما هو واجد لا فاقد ، زاهد زهادة الغنى فيما إليه غيره فقير ، غير واجد ، إنه يأكل ويشرب من الطيبات إلى الحد المفروض «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» .

نعم إنه لم يكن فقيرا حتى يسلك مسلك الزاهدين عن حرمان ، بل سلك مسلك الزاهدين وهم أغنياء ، وإن كان الغنى يتفاوت ، غير أن هنالك من الأغنياء من لا يشبع وبين يديه الدنيا بحذافيرها ، وكان القبارى قادراً على أن يحد من غناه بإرادته هو ، وفى الوقت نفسه كان يضع نصب عينيه حق الجار والمحتاج والخادم ، وما يوجبه الشرع عليه من أداء الزكاة والصدقة فى كل ما يدخل عليه من تجارة وزراعة ، وهذا يشير بكل وضوح إلى أن هذا السلوك إنما هو حلقة من حلقات السلسلة التى ترتبط بالمبدأ السائد فى حياة القبارى نظريا وعمليا ، وهو مبدأ التحرز دائما من أجل طلب الحلال ، ودفع الحرام .

جاءه يوما حشد كبير من الأمراء يريدون التوبة على يديه فأغلق الطاقة التى كان ينظر منها على الناس وقال لهم :

« اخرجوا من غيطان الناس »

فتعجبوا كيف يخرجون من هذه الغيطان الخربة المهجورة التى ليس بها أحد ، ولكن القبارى أفهمهم أن الحق والتحرى ألا يدخل أحد مكان إنسان «إلا بإذنه» ولو كان هذا المكان مهجورا .

ونحن نعلم من بين أسباب قيام الثورة الفرنسية أن النبلاء كانوا يطأون بخيولهم وكلابهم مزارع الفلاحين للصيد ولا يملك أحدهم أن يعترض أو ينبس ببنت شفة ، فقد كان الإقطاع سائدا ، والطبقية لها امتيازاتها.

وورد ذكر القبارى أمام أحد الأمراء فقال لمن حوله «لم لا يبيع الشيخ القبارى بستانه ويتصدق بثمنه؟!» وبلغ ذلك الكلام مسامع الشيخ، فقال لصاحبه أن يذهب إلى الأمير ليقول له:

« هذا رأيك أنت ، أبيع حلالى وأحتاج إلى حرامك، وإلى الوقوف ببابك، أنا أطلب السلامة وهى رأس المال ، أين الوصول إلى الفائدة » أى كيف يحصل على ثواب الصدقة ، وهى نافلة يتقرب بها العبد إلى الله حتى يحبه أما طلب الحلال فهو فريضة واجبة .

فرارا من الشبهات:

كان القبارى يفر من الشبهة فرار السليم من الأجرب ، فكان لا يرضى بأن يستظل بسقف جامع الجمعة، لماذا ؟ لأنه يعتقد أن بناء هذا الجامع كان على يد قوم مضوا لم يكونوا يحترزون من المظالم، وذلك فى أيام الملوك والأمراء والنواب، كما هو المعهود فى كل زمان ومكان.

ولهذا كان إذا صلى الجمعة اختار صحن الجامع مما يلى السقف، ابتعادا عن الانتفاع بظله ، وكان إذا دخل المسجد دخل من أقل أبوابه سقفا ، تهربا من كثرة المشى تحت السقف ، وكثيرا ما كان يسقط المطر الغزير على المصلين فى صحن المسجد غير المسقوف فيهرب الناس منه ، ويظل هو راضيا بذلك لا يتحرك

وأخذ أحدهم يتحدث إلى الناس فى الورع بجامع الدوانيقى فقال القبارى :

« أما يستحى يتكلم فى الورع وهو بجامع الدوانيقى تحت السقف » واعتبر الدرس تحت سقف الجامع منافيا للورع فى حقيقته وجوهره .

وكان أيضا لا يستظل بسقيفة ، وهو راكب إذا سقط المطر ، ويسرع بقدر الإمكان ، بحيث يمر مرور السهم ولو كان المطر غزيرا ، خوفا من شبهة الحرام، إذا ما استظل بسقيفة غيره .

وكان يذهب أحيانا إلى البحر ، فيرى السفن على الساحل ، وصواريها وأخشابها مطروحة والناس بالقرب منها ، أو جالسون عليها فينكر عليهم ذلك ، لأنهم بذلك يتصرفون فى مال غيرهم بدون إذن ، وإذا خرج إلى الخليج ومعه دابته ، كان يتحرج من الصيد والشرب ، ومن سقى الدابة منها ، ويعمد إلى مكان ليس فيه للخليج جسر مبنى ، حتى لا يكون الحاكم أو الوالى قد سخر الناس فى بنائه وإقامة ضفته على الخليج .

وكان يحصد الشعير يوما فى بستانه والوقت نهار ، وأخذ يحصد صفا ، ويترك صفا بلا حصاد . لماذا ؟ لأن ظلال نخل الجار كانت تقع على الشعير ، لهذا كان لا يحصد الشعير الذى وقعت عليه الظلال ويقول :

« إن ظلال نخيل الجار ممتدة فى هذا الوقت فأنا أتحرى ألا أستظل بظله ، فإذا تحول الظل عن هذه المواضع ، رجعت فحصدتها » .

وقد تأثر القبارى بالإمام أبى حنيفة عندما ذهب إلى مدين له ، يتقاضاه دينا عليه له فاستظل بظل شجرة له ، ثم تدارك فنهض مسرعا وابتعد عن الظل وقال :

« بلغنا أن هدية المدين حرام ، والانتفاع بظله من هذا القبيل » .

إلى هذه الدرجة القصوى من التحرز كان القبارى يعتبر ظل شجرة المدين هدية ، وأن هديته حرام وإذن فالظل حرام عليه أن يستظل به وهو دائن .

واولى الأمر منكم :

وكان الشيخ القبارى إلى جانب ذلك من الملتزمين بطاعة ولى الأمر ، التزام

المؤمن العاقل الذى يقدر عواقب مخالفة الرعية لأوامر الراعى ، من وقوع الفتنة والتعرض للهوان والذل ، فكان شديد التحرز من مخالفة العامة للسلطان أو التمرد عليه ، يقول عن نفسه تطبيقا لهذا المبدأ الاجتماعى القويم :

« ما أدرت ساقيتى قط حتى يدير أضعف الناس وأخوفهم ، فإن اتفق منع كنت أول ممتنع » ، ويقصد بأضعف الناس وأخوفهم هنا الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة .

وعلى ذلك كان القبارى يعرف أصول رى الأرض بالدور ، ويحترم النظام العام ، ويحرص على المصلحة العامة ، قبل حرصه على مصلحته الخاصة . وبذا يسود السلام بين الناس .

وقد رأينا كيف كان يتوقف القبارى عن تدوير ساقيته ، لرى بستانه عندما أصلح خليج الإسكندرية ، بعدأ بنفسه الحريصة على الحلال عن شبهة الانتفاع بعرق الكادحين فى حفر الخليج ، دون أن يتقاضوا أجورهم كاملة من أولى الأمر ، حتى لقد هدد بالهجرة نهائيا من مصر ، إذا استمروا فى العسف والظلم ، وكأنى به يتمثل قول الله تعالى والأمر العالى بالهجرة من أرض المظالم :

«إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » .

مع الصيادين :

أما معاملته للصيادين فإنها تكشف لنا عن بعض جوانب سلوكه المتين فى التحرز والتحرى ، فقد أشار عليه سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام بالاحتراس

من معاملة الصيادين ، فانهم كثيراً ما كانوا يغشّونه، ويستغلون طيبة قلبه وسماحة يده فقال له :

« إذا وجدوا فليفعلوا » أى أنهم لا يستطيعون .

وكان القبارى يشترط على الصياد ألا يكون معه شريك ، وأن تكون أدوات الصيد ملكه هو ، غير مستأجر لها أو مستعيرها أو مستعين بها من أحد ، وإلى جانب ذلك يجب ألا ينبهه أحد إلى السمك ؛ كما ينبغى أن يكـــون الصياد حسن السيرة والسريرة ، مستوراً فى دينه ، مخلصا فى عبادته ، وكان القبارى فى بادىء الأمر يشترى السمك بميزان عنده ؛ ثم صار يشتريه جزافا ، ورأيه فى ذلك هو أن الشراء بالميزان يقصد به التخفف من خطر غبن البائع أما ترك وزنه وشراؤه بلا ميزان ففيه الراحة من تحرير الميزان ، وليكن القبارى مظلوما فذلك عنده خير مما لو كان ظالما لغيره ، ويستوى فى ذلك الشىء التافه مع الشىء العظيم .

وكانت عادة الشيخ القبارى أن يعطى الصياد أكثر من حقه ، ونفسه بذلك راضية سمحة ، ورحم الله عبداً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى ، بل إنه كان يزيد فى ثمن السمك الذى يشتريه إذا كان الصياد قد قصد إلى الصيد من مكان بعيد ، تقديراً منه للجهد الذى بذله فى الحصول عليه ، وقد عرف الصيادون عنه ذلك ، فكانوا يبالغون فى طلب أكثر مما يستحقون ، وهو يعلم منهم ذلك تمام العلم ، ولما نبهه الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى ذلك عند زيارته له فى بستانه قال له:

« أعلم أنهم غبنونى ، ولكن (رضيت) بكونى مغبونا لا غابنا » .

وتحرزاً منه فى أكل السمك الطاهر النقى ، البعيد عن النجاسة، وتجنبا لتزاحم الصيادين من حوله ، كان يكره السمك الذى يصاد من الميناء ، فهناك يتبولون ويتغوطون ويغتسلون ويغسلون ، والطهارة على كل حال غير مضمونة هناك على هذا الوضع، والسمك يتكاثر على البول والغائط وأنواع القاذورات من كل لون.

الطيور :

أما الطيور فقد اتبع السنة الشريفة فى أكل الحلال منها وترك الحرام، اعتماداً على عادة كل منها من حيث تناول الغذاء الطاهر دون الجيفة وإمعانا منه فى طلب ما فيه السلامة لبدنه ، والارتياح إلى ما يرتضيه له دينه، فكان إذا اصطاد نوعا من الطير وهو (الدج) شق عن قانصته ، فإن وجد فيها حب المرسين ونحوه من الثمار أطعم ذلك الطير لغيره من الزوار والجيران ، وإن وجدها خالية منه أكله واستطاب لحمه ، وقد جرب (العصفور البدرى) فوجده لا يتناول من بلادنا شيئا إلا فى موسم العودة ؛ وتأكد بذلك من نقاء قوانصه ، فلم ير مانعا من تناوله .

أما (السمان) فقد تركه ، إذ وجد فى قوانصه (حب الخربق) ، وكان يقول : « فيه عروق سم » .

وكان قبل ذلك يقيم شباك الصيد - أى الشراك المعروفة - بناحية الدير ، لصيد السمان ، ثم عدل عن ذلك إلى آخر أيام حياته، وقد تعذر عليه أخيراً ذبح العصفور فترك صيده فتحدث إليه فى ذلك أصحابه ، وعرضوا عليه أن يستأجر صياداً ، فإذا ذبح الطير فتشوا له الذبيحة كما يشاء هو من دقة وتحرز ؛ للكشف عن قوانصه ، حتى يطمئن ويرتاح ضميره ، وبعد تفكر وتأمل ، قال لهم :

« ذبيحة العصفور صعبة ، وما اعتدت الاستنابة فيها ، وإنها على عقدة ، لو أنى حللتها انحلت كما أريد لفعلت ، ولكن أخاف أن أحلها قليلا فتنحل كثيراً » .

وارتضى ذلك الحل ، خوفا من الوقوع فى منطقة الشبهة ، التى لا نجاة منها عقلا أو نقلا إلا لمن عصم الله .

ومع هذا التشدد الذى ارتضاه القبارى لنفسه ، والتزم به أمام ضميره والناس ،

وفيما بينه وبين ربه ، كان معتدلا غير مسرف ، وذلك بشهادة صاحبه ابن المنير الذى يقول عنه :

« وكان إذا دعته الضرورة إلى شبهة اقتصر منها على أقل مقدار الحاجة » وهذا من الشرع فى الصميم ، إذ أن الضرورات تبيح المحظورات ، ولكل قاعدة استثناء ، لما وراء ذلك من دفع المضرة ، وهى مقدمة على جلب المنفعة ، وما دام قوام الحياة متوقفا على شىء ، فلا بأس من إتيانه ، ولو كان فيه شبهة ، والشرع يسمح بذلك .

دابتنا لا تأكل الحرام

ولقد حكى عنه ابن المنير قصة الدابة التى باعها ، ورواها من بعده السيوطى فى « حسن المحاضرة » وتتلخص فى أن رجلا اشترى منه دابة ، وبعد أيام عاد إلى الشيخ يقول إن الدابة قد امتنعت عن الطعام منذ اشتراها ، فسأله عن عمله فقال: رقاص عند الوالى ، فقال القبارى على الفور : دابتنا لا تأكل الحرام » ، ورد إلى الرجل ما كان دفعه واسترد منه دابته .

وكان لهذه الدابة نوادر يتناقلها أهل الإسكندرية فيما بينهم ، منها أنها كانت عالية وتتأدب له إذا ما هم بركوبها ، وإذا أراد أحد غيره أن يركبها جمحت به ونفرت منه ، وكانت تصبر على شرب ماء البحر ، وهو ملح أجاج ، كما نعلم ، وتصبر على العطش ، وفى ذات مرة ركبها إلى الميدان ، فالتف الناس حوله ، وهو مشغول بمحاسبة أحد التجار ، فنهق الحمار الذى كان يركبه وصدر منه ما يصدر من البهائم ، فعرف أن إبليس قد عجز عن التشويش عليه ، فجاءه عن طريق حماره فقال :

« أعوذ بالله » . فسكنت الدابة وسكتت .

ومن الطرائف فى هذا الصدد أن القبارى قدم العلف يوما لحماره ، وتخيل حواراً جرى معه حول الحلال والحرام لا يخلو من عبرة .

قال القبارى لحماره : أتعرف ما هو ؟ ، أطاهر أم نجس ؟ حلال أم حرام ؟.

قال الحمار وهو مسترسل فى أكله : لا .

قال القبارى : كل، فما خاطبك أحد بشيء من هذا ، ولكنه خاطبنى عنك ، وهأنذا أجتهد لك بالتنظيف ، ترى هل يبتلينى الله حتى أبقى مثلك يقدم لى العلف، ويقال لى ، فإن تركت عصيت ، وإن أكلت فكأنى بذلك أقضم على الجمر » .

وهذا الحوار لا يخلو من لفتة بارعة إلى أن الإنسان مطالب باجتناب الحرام، لأنه مكلف ما دام له عقل ، أما الحيوان فلا عقل له ، وإذن فقد سقط عنه التكليف ، ولا حساب عليه ، ولكن صاحبه مطالب مع ذلك بألا يطعمه إلا من الحلال ، فهو عنه أمام الله مسئول .

ومن هذا كله ، يتبين لنا بكل وضوح إلى أى حد كان الشيخ القبارى يطلب الطيب الحلال من كل شيء ، غير متجاوز حدود الله وشروط العقل والذوق ، وهو فى تحرزاته وتحرياته ، لم يكن يقصد المبالغة والمغالاة ، وإنما هو الرجل الحريص على دينه ، المتمكن من معرفة ماهو نافع وما هو ضار ، غير متهاون فى أمر من أمور العقيدة، ولا متساهل فى شأن من شئون الصحة والعافية .

ما قاله الله والرسول :

ومثل هذا السلوك ينبغى أن يكون ملازما للرجل العارف الواعى ، ومن لم يفعل ذلك فهو جاهل أو متجاهل ، ونعوذ بالله أن يكون القبارى أو أى عاقل آخر من أهل الغفلة والغباء ، فنى حديث النبى عليه السلام أنه قال :

« أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال عز وجل :

«يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا، إنى بما تعملون عليم». وقال: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء : يارب يارب، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنّى يستجاب له ؟ »

وفى حديث آخر « ولا يقبل الله إلا الطيب ».

وعملا بهذه السنة الحميدة من طلب الحلال الطيب ، تقيأ أبو بكر الصديق رضى الله عنه طعاما دخل جوفه ، بعد أن تبين له أنه من غير وجه الحلال .

المرجع الى التربية الاجتماعية :

ويبدو لنا بكل وضوح وجلاء أن القبارى قد سلك هذا المسلك فى حياته وراثة عن آبائه وأجداده ، فقد رأينا ما كان عليه جده الأول المتوفى سنة ٥١٢هـ من التورع فى المأكل والمشرب، فانتقلت إليه هذه التربية عبر الأجيال، فلم يتخلف عنها زاهدنا المعروف، وبينهما ١٥٠ سنة فى الوفاة ، كما أن الحافظ السلفى قد ذكر لنا رجلا زاهداً عرفته الإسكندرية وتوفى بها سنة ٥١٤ هـ ، فهو معاصر بالتأكيد لجد القبارى الذى ذكرناه ، ومتفق معه فى وجهة السلوك بالنسبة للزهد ، وطلب الحلال ، من هو ذلك الرجل وماذا نعرف عنه ؟

هو أبو شبل عُلَيّان بن عُبية الزغبى العامرى من أمراء طرابلس الغرب، دخل مصر وعاد إلى بلاده ثم رجع فأقام بجزيرة الإسكندرية ، وترك ماكان له ببلاده من ثروة طائلة ، وساح فى طلب الحلال ، وكان الناس يفدون عليه من كل مكان بعيد وقريب ، يلتمسون منه البركة وهو فى صومعته التى اختارها لنفسه بجزيرة رأس التين بالإسكندرية ، وقد عرف بالتقوى والورع ، وكان يحتاط أشد ما يكون الاحتياط فى طلب القوت الحلال ، ويبالغ فى العبادة والزهادة ، حتى

صار علما مشهوراً من أعلام الإسكندرية ، ومن أقواله المأثورة عنه أن « قليل العبادة مع القوت الحلال ، أنفع للعبد من كثير العبـــادة مع القوت الحرام، وطلب الحلال هو الجهاد » .

وقال عنه السلفي « ولم يكن خاليا من العلم ، بل كانت أموره كلها مبنية على الشرع »، وهذه شهادة لها قيمتها من مُسنِد الدنيا فى عصره ، وإمام المحدثين، الحافظ السلفى عالم الإسكندرية الذى زاره فى مرض موته ، فدعا له وقبّل السلفى وجهه، ومات سنة ٥١٤ بالإسكندرية ودفن بصومعته ، وصلى عليه أشهر عالمين فى الإسكندرية وهما أبو بكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠هـ ، والحافظ السلفى المتوفى سنة ٥٧٦هـ.

وعلى ذلك يمكن القول إن القبارى الذى اشتهر بهذا النوع من الزهد والورع ، إنما يرجع فى ذلك إلى عدة عوامل، اشتركت جميعا فى هذه الخصلة الحميدة ، وهذه العوامل هى :

أولا : تأثره الشديد بما جاء فى الكتاب والسنة حسبما قرأ وسمع .

ثانيا: تأثره الشديد بما ورثه من بيئة الإسكندرية ، حيث اشتهر بها الصالحون من أهل الورع والتقوى .

ثالثا: وراثة هذه الخصال عن جده البعيد ، وانتقالها إليه عبر الأبناء والأحفاد.

رابعا : ظروفه الخاصة التى حولت حرمانه من حواس ثلاث إلى الرضى بما اختاره الله له ، والتعفف عما فى أيدى الناس .

— ٥ —

أجواء ... وأضواء

أصداء .. من بعيد

ولد القبارى بالإسكندرية. ونشأ وترعرع واشتهر فيها حتى مات ودفن بها ، وقضى من العمر خمسة وسبعين عاما فيما بين ٥٨٧ هجرية و٦٦٢هجرية، وكانت هذه الفترة حافلة بعجائب الأحداث وغرائب التواريخ ، للملوك والأمراء والولاة فيها صولات وجولات ، وللزمان مجريات ومجريات ، انعكست كلها على حياة القبارى وسلوكه ، وكان لها تأثيرها فى نفسه من غير شك ، وإلى حد بعيد جدا .

البيئة الزمانية :

وإذا كانت سيرة القبارى ـ التى بين أيدينا ، كما سجلها لنا تلميذه ومريده ناصر الدين بن المنير ـ قد خلت من التفاصيل الدقيقة عن عصره وبيئته الضيقة والواسعة فإن لدينا من المراجع التاريخية والموسوعات اليومية ، ما نستطيع به أن نلقى (الأضواء) الكاشفة على تلك (الأجواء) الغامضة ونحن مطمئنون .

وقد حظى القبارى بنصيبه من القرن السادس الهجرى ، فيما لا يزيد على ثلاثة عشر عاما ، ومن القرن السابع الهجرى فيما لا يزيد على اثنين وستين عاما ، وفى هذين القرنين تقلبت الدول الحاكمة على مصر ، وانتقل صولجان الحكم من الدولة الفاطمية أو العبيدية قادمة من المغرب ، إلى الدولة الأيوبية آتية من المشرق ، ثم دولة الأتراك أو دولة المماليك البحرية ، أولئك المماليك المجلوبون من الشرق الأدنى على يد الملك الصالح فأسكنهم (جزيرة الروضة) من النيل .

وعلى الرغم من عوامل الضعف والانهيار التى سادت القرن السادس الهجرى، سواء فى الدولة العباسية شرقا ، والدولة الفاطمية غربا ، فقد نشأت فى منتصف هذا القرن الدولة الأيوبية فى مصر ، ودولة المرابطين يومئذ فى أفول ، وبرزت كذلك دولة الموحدين فى المغرب العربى .

ومع ذلك كانت الحركة الثقافية فى أوج قوتها وازدهارها : فقد كان الملوك والسلاطين - فيما عدا الفاطميين - يشجعون العلماء ، ويأخذون بأيديهم، فعرف العالم الإسلامى الأئمة الأفذاذ كالغزالى والطرطوشى وابن الجوزى وابن رشد ، حتى لقد أنشأ الوزير نظام الملك (المدرسة النظامية) ببغداد خصيصا من أجل الإمام الغزالى ، كما أنشأ العادل (العادلية) بالإسكندرية للسلفى .

وفى مصر شهد النصف الأول من القرن السادس هذا شيوع المذهب الفاطمى وهو مذهب الشيعة ، وحجر الخلفاء الفاطميون - وعاصمتهم القاهرة - على غيره من المذاهب ، ومع ذلك كان أتباعه قليلين ، فلما كانت السلطة والدولة للأيوبيين فى النصف الآخر من هذا القرن ، تحررت الحركة الفكرية من عقالها، وانتعشت الثقافة الإسلامية أيما انتعاش ، إلى جانب العديد من إنتصارات الأيوبيين على الصليبيين ، مما استنفد من الأقاليم الإسلامية جهداً كبيراً فى حشد القوى المادية والمعنوية ، لصد غارات أعداء الإسلام على أعز بقعتين فى ذلك الوقت وهما مصر والشام .

وجاء القرن السابع :

وأطل القرن السابع الهجرى ، والدولة العباسية - من خليجها إلى محيطها - تعانى سكرات الموت ، وصار النفوذ الفعلى فيها ، وفى معظم بلاد الجناح الشرقى منها خاصة للسلاجقة ، حتى تمكن هولاكو من غزو بغداد سنة ٦٥٦ هجرية ، والقضاء على آخر خليفة عباسى فى الدولة العباسية ، التى انقرضت ما بين عشية

وضحاها ، بقتل المستعصم بالله لضعفه وخيانة وزيره ابن العلقمى ، وقد امتد بها الزمن حتى سلخت منه ٥٢٤ سنة .

وفى مصر كانت الدولة الأيوبية قد سقطت سنة ٦٤٨ بعد أن نصرت الإسلام ، وحققت الكثير من أهداف الحكم الإسلامى فى ساحته ، ورفع راياته ، فاندحر الأعداء بعد جهود مضنية بذلها ملوكها وسلاطينها ، ولم يكن ذلك ليصرفهم عن النهوض بالعلوم الإسلامية ، والأخذ بأيدى العلماء الأجلاء ، منهم فخر الدين الرازى وابن قدامة وابن الحاجب وابن المنير وابن دقيق العيد والبيضاوى والآمدى وابن تيمية والعز بن عبد السلام والقبارى ، وهم كما نرى بوضوح ، ينتمون إلى شتى البقـــاع والنزعات والمذاهب ، كما ينتمون إلى الثقافات العديدة ، فنهم فقهاء ومحدثون ونحويون وزهاد وحفاظ وقراء ، وكانت مدة حكم الدولة الأيوبية ستة وثمانين عاما إلا شهرا واحدا .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد مات سنة ٦٤٧ وهو يصد هجمات الصليبيين على دمياط ، وكتمت زوجته (شجرة الدر) خبر وفاته ، فجعل الأمراء عليهم عز الدين أيبك أتابك العسكر ، وجعلوه مشاركا لها فى تدبير أمور الدولة وتزوجها ، ثم انفرد بالحكم ، بعد أن خلعت نفسها برضاها ، وصار أول ملك فى دولة الأتراك ، وتوالت أيام هذه الدولة التركية ، وأصبحت تعتـــبر امتداداً للدولة الأيوبية فى نضالها المر وصدها لغزوات الصليبيين ، وهجمات القراصنة الأوروبيـــين على السواحل والثغور الإسلامية ، وحققت من الانتصارات والإصلاحات مالا يزال فى جبين الدهر ، كالدرر الغالية .

بين دولتين

عاش القبارى إذن والحكم فى مصر لدولتين عظيمتين ، هما الدولة الأيوبية والدولة التركية ، وأدركت الإسكندرية مالم تدركه فى أية دولة أخرى من قبل ومن بعد ، من حيث الإعداد الكامل والتعبئة للدفاع عن شرف العروبة والإسلام .

وفى هذه النقطة الاستراتيجية الهامة من العـــالم ، وهى ثغر الإسكندرية ، وانتشر الإصلاح والعمران فى شتى المجـــالات المدنية والعسكرية والعلمية ، حتى لقد كان العلمـاء والمتعلمون يفدون عليهـا من المشرق والمغرب ، يأخذون عن أعلامها ، وهم فى الطريق إلى الحج ، أو العودة منه ، وكثيرا ما كانت تطيب الإقامة لأحدهم ، فيمكث بها ويتزوج منها ، ويذيع صيته فيها ، وهو أصلا من الأندلس أو المغرب أو المشرق ، فمنهم الطرطوشى والشاطبى والمرسى والشاذلى والتونسى والمقدسى وهكذا .

وإذا رجعنا إلى ما قبل وفاة القبارى بمائة سنة مثلا وجدنا الأحداث تتلاحق على مصر والإسكندرية ، وتترك بصماتها على العالم الإسلامى فى حضارته وثقافته معا .

حصار الاسكندرية

ففى سنة ٥٦٢ بعث السلطان نور الدين إلى مصر جيشا كثيفا يضم ألفين من الفرسان يقودهم أسد الدين شيركوه ، لصد غارة صليبية على الإسكندرية ، وفيها يومئذ ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى محاصر ، طال عليه الحصار أربعة أشهر ، وأهل الإسكندرية مع صلاح الدين بأيديهم وقلوبهم ، يشدون أزره ، ويقدمون له العون بالسلاح والرجال والأموال ، حتى انتصر ، فلم ينس للإسكندرية وأهلها ما قدموه له فى ساعة العسرة .

وفى السبعينات من القرن السادس صار صلاح الدين - وقد أصبح ملكا على مصر والشام - يتردد على الإسكندرية ، ويقضى بهـــا بعض الأيام والليالى من رمضان ، فيستمع - ومعه ولداه وهما صغيران - إلى دروس الحديث من إمام المسندين ، وعالم عصره الحافظ السلفى ، ومن بعده الحافظ بن عوف : فى قراءة (الموطأ) للإمام مالك بشروح عالم الاسكندرية الإمام الطرطوشى ، حرصا من صلاح الدين على دعم المذهب السنى ، وإقامته على أنقاض مذهب الشيعة .

وفى أيام زياراته للإسكندرية هذه، كان الملك الناصر صلاح الدين يشرف على تكميل عمارة أسوارها وأبراجها وتجديد مراكب أسطولها، وإعداد المقاتلين لغزو جزر البحر، ثم يعود إلى القاهرة أو دمشق، ولم تكن وفاة صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٩، قبل مولد القبارى بعامين، نهاية لاهتمامات بنى أيوب بالإسكندرية، فقد ظل أبناء صلاح الدين يحفظون لها ولأهلها جمائلهم، فقد مات الملك العزيز عماد الدين عثمان سنة ٥٩٥ هـ، وفى نيته زيارة الإسكندرية ودمياط، للنظر فى مصالحها، لولا أن أقعدته الحمى عن الزيارة، فمات عن ٢٧ عاما، ومدة حكمه ست سنوات.

ومما يذكر للملك العزيز بالفضل أنه أبى عزل قاضى الإسكندرية لقاء مبلغ كبير من المال (٤٥ ألف دينار) قدمه إليه خصم ذلك القاضى، - وما كان أشد حاجة العزيز يومئذ إلى المال -، وكان الوسيط فى هذه الصفقة الأمير فخر الدين جهاركس فقال له العزيز: «أعد المال إلى صاحبه، وقل له إياك والعودة إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا، وعرفه أننى إذا قبلت هذا القدر منه، إنما أكون قد بعت به أهل الإسكندرية، وهذا لا أفعله أبدا(١)».

ويذكر لنا ابن إياس (٢) أن الملك العادل كان يشتى بمصر، ويصيف بالشام، وكانت مدة حكمه بالشام ١٩ سنة وبها مات سنة ٦١٥ هـ فبويع لابنه الملك الكامل «وكان كثير الغزوات ويحب الجهاد، وفتح فى أيامه فتوحات كثيرة من البلاد الشامية والمصرية».

بين دمشق والقاهرة:

وكان من عادة ملوك هذه الفترة التنقل بين دمشق والقاهرة، لتفقد أحوال

---

(١) مفرج الكروب: ابن واصل

(٢) بدائع الزهور: ابن إياس

الشام ومصر، كما كان يفعل الملك الكامل الذى خرج إلى دمشق فمات بها سنة ٦٣٥ ودفن بدمشق ، وكانت مدة حكمه بمصر وحدها ٢٠ سنة ، وخلفه ابنه الملك العادل أبو بكر الملقب باسم جده ، وقد جرت الحرب بينه وبين أخيه نجم الدين الذى قدم من حلب إلى مصر ، وانشق العسكر إلى فريقين ، وتغلب نجم الدين على أخيه العادل ، وخلعه وسجنه بالقلعة ، حتى مات بها قتيلا بعد سنة واحدة .

وخلا الجو لنجم الدين الذى صار يسمى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وعمره ٣٤ سنة، وبويع له بالسلطنة سنة ٦٣٦ هـ فاستكثر من شراء المماليك «حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على الناس ، وينهبون البضائع من الدكاكين فضج منهم الناس » كما يقول ابن إياس ، وهم الذين بنى لهم قلعة فى روضة النيل، وسماهم المماليك البحرية ، وكان عددهم لا يقل عن ألف مملوك .

وما لبث الصليبيون أن أغاروا على دمياط ، فنزل الملك الصالح بالمنصورة ، ونادى فى الناس لجهاد الأعداء، وفى أثناء المعركة، ثقل عليه المرض فمات سنة ٦٤٧ هـ فبويع بالسلطنة لابنه توارن شاه، وقد جىء به من حصن كيفا بالشام، وكان طفلا فطمع الإفرنج فى مصر وزحفوا على دمياط ، فأذاقتهم كئوس المنون، وانتصر عليهم، ثم اغتاله الأمراء سنة ٦٤٨ ، وبه انقرضت الدولة الأيوبية ، والمجاهدون على طريقهم، لا يغمد لهم سيف ، ولا يغمض جفن ، ومضت دولة الترك .

وفى القاهرة ترتفع راية الخلافة الإسلامية، بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد، ومايزال سلاطين مصر يوالون خلفاء العباسيين عنايتهم واحترامهم ، ويتولون السلطنة من أيديهم ، فيدفعون غارات الأعداء عن مصر والشام ، متنقلين بينهما تارة، وتارة أخرى يزورون العلماء هنا وهناك أثناء إقامتهم ، للإشراف على تجديد الأسوار ، وتعمير القلاع، وحشد الأساطيل، وتعبئة الجيوش.

وقامت دولة الترك

ثم تقوم دولة الأتراك أو المماليك البحرية سنة ٦٥٠ ﻫ على يد عز الدين بن أيبك ، فينطلق العرب المصريون فى ثورة عارمة ، شملت الوجهين البحرى والقبلى، وقد عزّ عليهم أن يكون العرب السادة فى خدمة الترك المماليك المجلوبين، ولسان الحال « نحن أصحاب البلاد » .

هذا والزعيم العربى الثائر حصن الدين ثعلب ينادى بأن العرب أحق من المماليك ، وتدور رحى القتال بين العرب والترك ، وتنتهى بانتصار المماليك ، ويقع زعيم الثورة أسيراً فى أيدى الترك ، ويقضى أيامه فى سجن الإسكندرية .

وتتوالى الأحداث فى عنف ظـــاهر ، فى مصر والشام والعراق : زلازل ومجاعات وأوبئة فاتكة ، وفتن واغتيالات وغلاء فى الأسعار ، وأيام قحط وشدة ، والصليبيون بأساطيلهم على الثغور الإسلامية ، والتتار فى زحفهم إلى بغداد ، يتقدمون إلى دمشق ، وورثة العروش فتية صغار لا يصلحون ، وينتصر الجيش المصرى على التتار فى (عين جالوت) سنة ٦٥٨ ﻫ وتنتشر الحرائق والزلازل ، ويكثر العزل والخلع والتكالب على السلطة، بينما علماء المشرق والمغرب فى ميادين الجهاد مع العسكر، أو مع الناس فى المساجد، يجهرون بكلمة الحق أمام السلطان، لا يرهبون غير الله.

تلك هى الأجواء العامة البعيدة منها والقريبة التى اكتنفت معظم النصف الأول من القرن السابع الذى هو بمثابة الفترة الخصبة التى عاشها الشيخ القبارى، وقد أدرك فى حياته بعض الظلال من دولتى بنى أيوب والمماليك البحرية ، فما غربت على الإسكندرية شمس الأولين ، ولا أشرقت عليها شمس الآخرين إلا وهناك اضطراب فى الأحوال الداخلية والخارجية ، والناس غير آمنين على أنفسهم من عدو يغزو ، وطاعون يفتك ، ولص ينهب ويسلب ، وزلزال يدمر ، وحريق يمحق ، والويل يومئذ لكل سلطان لا يعمل حسابا للعلماء والفقهاء ، فكيف يجمع

الجموع للقتال، دون الإذن من أصحاب كلمة الجهاد فى سبيل الله : الذين يحرضون عليه، ويثيرون من أجله الحماس فى الناس، ويشعلون الحمية فى القلوب المؤمنة بإحدى الحسنيين، بكل ما ملكت ألسنتهم من دوافع العقيدة الصحيحة .

ومن هنا كان ميل السلاطين إلى علماء الإسلام يستشيرونهم، ويخطبون ودهم، ويستمعون إلى فتاواهم ، ويجاونهم وينزلون على إرادتهم ورأيهم، مما شجع هؤلاء العلماء على الجهر بالحق ، لا يخشون فى الله لومة لائم ، ولا يرهبون السيف ، ولا يتكالبون على طلب الجاه والمنصب من رضى الحاكمين ، ولو كانوا منصورين على العدو ، فإن ثمرة النصر إنما كانت من صنع الدعوة التى يقوم بها العالم ، ومن براعة المقاتل بالسلاح ، ومعظم المقاتلين يومئذ من العلماء أو من الجماهير التى تتهافت على مجالس العلم ، خمس مرات فى اليوم للاستماع إليهم ، والصلاة وراءهم صفا وراء صف .

ففى الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى أن علماء مصر كانوا يجتمعون فى سرادق لهم بالمنصورة ، ورحى القتال دائرة ، وذكر منهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ومكين الدين الأسمر وابن دقيق العيد، وأبا الحسن الشاذلى، وكانت تقرأ عليهم رسالة الإمام القشيرى فى التصوف ، حتى يمكن استرخاص النفس والمال والدنيا بما فيها فى سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الله.

هنا الاسكندرية :

وعلى أضواء هذه اللمحة التاريخية الخاطفة ، نستطيع أن نتعرف على الحياة العامة فى الإسكندرية خلال القرنين السادس والسابع ، على أيدى الحكومات المتعاقبة والولايات المتتالية ؛ فى عهود الفاطميين والأيوبيين والترك، وانعكاسات هذه الأضواء على الناحية الثقافية ، وهى إذ ذاك محط الرحال من كل مكان ، من أجل التماس الثواب على الرباط بثغرها ، أو اقتباس نور العلم من أعلامها ،

وقد رابطوا بها لنشر الحق والخير بين الناس . سيان فى ذلك من كانت إقامتهم بها دائمة ومن كانت إقامتهم عابرة أو موقوتة .

على أنه لم توجد مدينة فى العالم الإسلامى كالإسكندرية فى ذلك العصر ، من حيث كثرة العلماء ، وكثرة المدارس الدينية ، فقد ذكر لنا النويرى السكندرى - وهو من أبناء القرن الثامن الهجرى - أن قراصنة الإفرنج فى غزوتهم الفاشلة على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هجرية والتى عرفت بغزوة القبارصة وقد أغاروا عليها ، وكان فيما ذكره بها يومئذ من المنشآت والفنادق والشوارع عدد من المدارس المنسوبة إلى علماء مشهورين مثل : (المدرسة الخلاصية) التى عمرها نور الدين بن خلاص و(المدرسة الفخرية)، هذا غير الرباطات كرباط ابن سلام ، والمساجد الكبرى ومنها (مسجد الجيوشى) أو جامع العطارين و (جامع تربة طغية) بجزيرة رأس التين .

وكان من أبرز سمات الإسكندرية خلال هذين القرنين أن أهلها وعلماءها كانوا يدينون بالمذهب المالكى ، منذ قيام الدولة الأيوبية ، وتشجيعها للتسنن دون التشيع ، ومع ذلك فتحت المدينة صدرها لعلماء المذاهب الأخرى ، ولم يكن ثمت تعصب أو مايشبهه فيما بين هؤلاء وهؤلاء . وكان على رأسهم جميعا عالم الإسكندرية الأشهر الذى طبق صيته الآفاق ، الإمام الحافظ المحدث مسند الدنيا فى عصره صدر الدين أبو الطاهر السلفى الذى دخلها سنة ٥١١ فاحتفل بقدومه أبو الحسن على بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمى ، وأنشأ له بالإسكندرية مدرسة سميت (بالمدرسة العادلية) واشتهرت (بالمدرسة السلفية) وفيها يقول ابن خلكان « ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعيين سواها » وقد زار ابن خلكان الإسكندرية ، ومكث بها خمسة أشهر من عام ٦٣٦ هـ ، وكان الإمام الحافظ السلفى قد توفى بها ودفن سنة ٥٧٦ ، أى قبل أن يولد القبارى بأحد عشر عاما .

وعرف السلفي الذى قضى نحو ٦٥ سنة بالإسكندرية بالهيبة والوقار ، حتى لقد حضر أحد الوزراء ومعه أخ له لسماع درسه ، ورآهما السلفي يتحدثان و يشغلان عن الدرس فنهرهما بقوله :

«إيش هذا ، نحن نقرأ الحديث ، وأنتما تتحدثان ؟ ! » .

وكان للسلفي فى الإسكندرية مكانة عالية، عرف قدرها مئات وآلاف ممن قدموا عليه واتصلوا به ، وذكرهم فى (معجم السفر) ، ولم تخل من سجله هذا عشرات المعاجم والتراجم الأخرى .

نعم هنا الاسكندرية

واستقر **ابو بكر الطرطوشى** شيخ المالكية فى الإسكندرية بعد تطوافه فى البلاد منذ خرج من بلده (طرطوشة) فى الأندلس ، فكانت رحلته إلى الشرق، وعرف بالزهد والجهر بالحق ، حتى أوذى فى سبيله ، وصبر ووضع (سراج الملوك) وحارب البدعة، وقالوا إنه أول من أدخل العلم الإسكندرية،ومات ودفن بها سنة ٥٢٠هـ .

ومن تلاميذه الإسكندرانيين على المذهب المالكى **سند بن عنان** الزاهد العابد الصالح مؤلف «الطراز» ، استمر فى التدريس إحدى وعشرين سنة ، وقد مات ودفن بالإسكندرية أيضا سنة ٥٤١ ، وصدر الإسلام **ابو الطاهر بن عوف** المالكى أيضا والذى تزوج الطرطوشى من خالته، فكان ربيبه، وكان صلاح الدين الأيوبى حريصا على سماع موطأ مالك عليه فى الإسكندرية ، ومات ودفن بها سنة ٥٨١ ، وقد بنى له الوزير رضوان ولخشى مدرسة للحديث سميت (الحافظية) أو (العوفية)، ويرجع تاريخ إنشائها إلى سنة ٥٣٢ هـ فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ ، وكانت المدرسة السلفية امتدادا لها ، إذ أنشئت هذه سنة ٥٤٤ هـ أى بعد الأولى باثنى عشر عاما .

وابن عوف هذا هو إسماعيل بن مكى بن اسماعيل بن عوف الزهرى ويرجع أصله إلى الصحابى المعروف عبد الرحمن بن عوف، وبيته فى الإسكندرية معروف بالعلم، اجتمع فيه سبعة فقهاء فى وقت واحد ، وكانوا إذا دخلوا على عالم الإسكندرية سند بن عنان ، قال « أهلا بالفقهاء السبعة »، إشارة منه إلى فقهاء المدينة المنورة، وكان عددهم سبعة أيضا ، وقد عاش ابن عوف ٩٦ سنة

ومن أعلامها أيضا بشر بن الحسين بن محمد بن عبيد الله بن الحسين بن بشر الجوهرى المعروف الآن فى الإسكندرية بسيدى بشر ، وله ضريح يزار ومسجد مشهور ، وقد شهد له السلفى وأخذ عنه حكايات ونوادر ، وتوفى ودفن بها سنة ٥٢٨ هـ ، وأبو القاسم بن مخلوف المغربى السكندرى المتوفى سنة ٥٣٣ ومحمد بن عبد الرحمن المالكى الحضرمى قاضى الأسكندرية المتوفى بها سنة ٥٨٩ ، وأبو الحسن الإبيارى الفقيه الأصولى المتكلم ، وقد درس عليه ابن عوف وابن الحاجب وتوفى عن ٦١ سنة ، وذلك فى سنة ٦١٨ هجرية وابن الصفراوى المقرىء المحدث السكندرى ، الذى سمع من السلفى وانتهت إليه رياسة الإقراء والإفتاء ببلده ، ومات سنة ٦٣٦ هجرية ، وكذلك ابن الحاجب عالم النحو الأشهر الذى قضى آخر حياته بالإسكندرية ومات بها سنة ٦٤٦ هجرية عن ٨٥ سنة . وكان بارعا فى الأصول والعروض والفقه والقراءات إلى جانب النحو والصرف .

وإذا أحصينا أعلام الإسكندرية على هذا النحو فى القرن السابع فإن الصفحات المعدة للبحث لا تكفى ، وحسبنا مجرد الإشارة إلى أن القيسارى قد عاش فى بيئة علمية مزدهرة ثابتة الأركان راسخة الدعائم، توطدت مع الأيام، وقصدها طلاب العلم من كل مكان ، وكانت غنية بالعناصر القوية ، التى يندر توافرها فى عصر من عصور الثقافة الإسلامية فى أى بلد من البلدان .

ويستطيع القارىء أن يرجع إلى تراجم السلفى فى « معجم السفر » ليتأكد

من غزارة العلم ، ووفرة العلماء في القرن السادس من الرجال والنساء ، وإلى السيوطي في معظم مؤلفاته وإلى ابن كثير في « البداية والنهاية » وإلى ابن فرحون في « الديباج المذهب » ، والتنبكتي في « نيل الابتهاج » ، حتى لقد حرص السلفي على ذكر الفقيهات العالمات اللائي تلقى عليهن في الإسكندرية خاصة .

حقا إن ابن الجوزي قد أورد لنا قائمة بتراجم بعض العابدين الزاهدين في الإسكندرية تحت عنوان « ذكر المصطفين من عبّاد الإسكندرية » وذلك في كتابه «صفوة الصفوة» منهم: أسلم بن زيد الجهني الذي قدم الإسكندرية من خراسان زاهداً في الدنيا . ورجاء ثواب الله ، كما ذكر غيره من الفتية والنساء المنقطعات، وروى عن كل منهم نادرة تشير إلى الزهد العجيب الذي لم يسمع بمثله ولكننا نستبعد أية علاقة بين هؤلاء وبين القبـــاري ، اللهم إلا إذا قلنا إن الإسكندرية في القرن الذي سبق القباري كانت بيئة صالحة للزهد والزهاد .

ومع ذلك فإنه يصعب علينا الوقوف على أولئك الذين تلقى القباري عنهم الفقه ، وتأثر بهم في الزهد، وكذلك الذين تلقوا عليه من زواره وجيرانه فيما عدا تلميذه ناصر الدين بن المنير راوي سيرته الوحيد ، ومعاصره ومعـــاشره ، وقد وقف على كل صغيرة وكبيرة من أقواله وأفعاله ، ثم صديقه سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام .

الآمرون بالمعروف :

وفي ذلك العصر عرف العالم الإسلامي عددا من العلماء ، اشتهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في جرأة وإقدام ؛ منهم الطرطوشي ، والعز بن عبدالسلام، وابن الحاجب والقباري. قال ابن كثير عن القباري : «كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويردع الولاة عن الظلم ، فيسمعون منه ويطيعونه لزهده » .

وبذلك يعتبر القبارى من جملة العلماء ، وإلا فكيف يأمر وينهى وهو على غير علم . ثم هل من المعقول أن يزوره (سلطان العلماء) وهو ليس من العلماء ؟

وكم لقى الآمرون بالمعروف والنهى عن المنكر من الأذى والعنت، وهم يجهرون بكلمة الحق، جهاداً فى سبيل الله ، وخوفاً من سخط النبى عليه السلام إذ يقول : « الساكت عن الحق شيطان أخرس » .

أما القبارى فلم يكن حتما من هؤلاء فى مكان الصدارة، ولكنه عامة كان منهم ومن بينهم، ولم يصطدم يوما بملك أو سلطان أو وزير أو حاكم، وإنما تحاشاهم جميعا واعتكف فى بيته، وكان كما يقول ابن كثير « يردع الولاة عن الظلم ويسمعون منه ويطيعونه لزهده ، وكان مقيما بغيط له يقتات منه ، ويعمل فيه ، ويطعم الناس من ثماره » .

وقال المناوى عنه فى « الكواكب الدرية »

« زاهد أخلص فى العمل ، واجتهد فى قطع الأمل، ومال إلى العزلة ، واستعد للرحلة ، كان كثير الورع والخضوع ، غزير الإخبات والخشوع ، مبارك الطلعة مشهور الذكر بين الصوفية والسمعة ، يأمر بالمعروف واقتفاء آثاره، وله بستان يقتات منه ويطعم الناس من ثماره » .

الشاذلى وأبو العباس

وتمضى الأيام والسنون ، حتى يبلغ القبارى الخامسة والخمسين من عمره سنة ٦٤٢ هـ ، وهو ماض فى طريقه الذى رسمه لنفسه من الاعتزال فى بستانه، لا يلتقى إلا بهذه القلة القليلة من بنى البشر ، وعندئذ تشهد الإسكندرية ذات مساء جماعة من المغاربة على رأسهم أبو الحسن الشاذلى ، ومعه أبو العباس المرسى وأبو العزائم ماضى ومحمد القرطى وأبو الحسن البجائى وأبو عبد الله البجائى والوجهانى والخراز، وألقوا عصا التسيار عند (عمود السوارى)، وقد جاؤوا إلى

الإسكندرية ، فرارا من فتنة أضرم نيرانها ابن البراء قاضي تونس، فلم يجدوا غير الإسكندرية صدرا رحبا ، وثغرا باسما .

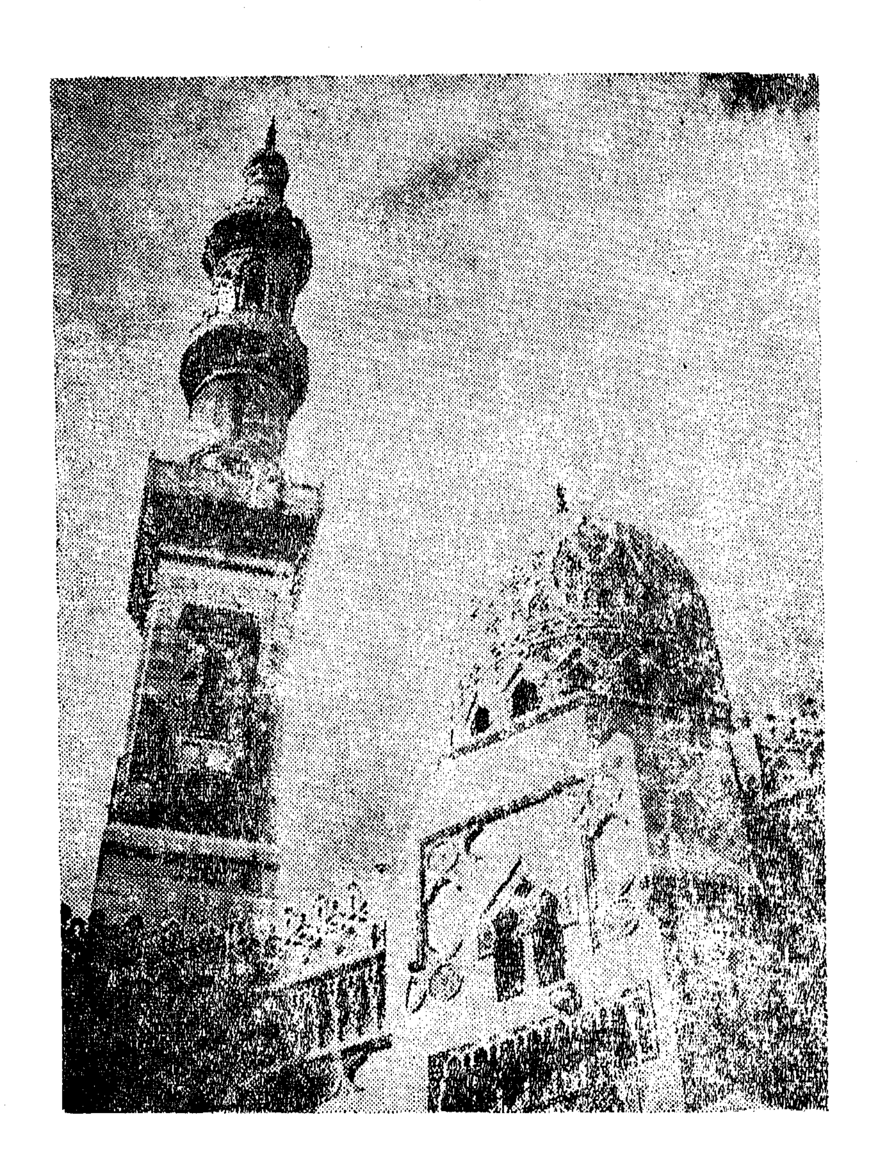
لقى أبو الحسن وصحبه من أهل المدينة كل ترحيب وتكريم ، فجاؤوهم من فورهم لضيافتهم ، يحملون إليهم الطعام ، وكان أول درس ألقاه أبو الحسن على صحبه هو :

« أحل الحلال مالم يخطر لك ببال ، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال » .

وعلمت جماعة بالإسكندرية يقال لهم «القبائل» بقدوم المغاربة فجاؤوا يلتمسون منهم التوسط لدى سلطان مصر، وهو يومئذ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد أمر بمصادرة أموالهم ، فخرج أبو الحسن ومن معه إلى القاهرة من (باب سدرة)، ولم يشك الحراس فيهم فتركوهم يخرجون ، وتشفع أبو الحسن فيهم لدى السلطان، وكان أمرهم قد بلغه من سلطان تونس، وعادوا إلى الإسكندرية ، وأقاموا بدار إزاء « كوم الدكة » .

وبدأ أبو الحسن يلقى دروسه بجامع العطارين ويعقد حلقات الذكر، وينتقل بأصحابه من مـــكان إلى مكان داخل الإسكندرية والقاهرة وغيرهما من البلاد المصرية ، والناس يقبلون عليهم ، والأتباع والمريدون يزيدون يوما عن يوم، حتى توفى أبو الحسن سنة ٦٥٦ هـ فى صحراء عيذاب، وهو فى الطريق إلى الحج، فخلفه تلميذه الأثير (أبو العباس المرسى) على الطريقة الشاذلية ، والتف حوله ابن النطرونى ، والمنذرى ، والقرطبى ، والعز بن عبد السلام ، ومنصور بن سليم ، وناصر الدين بن المنير، وابن عطاء الله السكندرى، وياقوت العرشى، وابن الحاجب، والشاطبى ، ومكين الدين الأسمر ، وداود الباخلى ،والموازينى ،والمغاورى .

وكان أبو الفتح الواسطى على قيد الحياة عندما قدم أبو الحسن الإسكندرية سنة



(جامع أبي العباس المرسى بالإسكندرية)

٦٤٢هـ، ولكنه توفى فى اليوم التالى لقدومه ، فلم يلتقيا، وانتشر أمر هؤلاء المغاربة الشاذلية المالكية الأشعرية ، وكانت الإسكندرية معقلا ومنطلقا لطريقتهم ، حتى توفى معظمهم بها ، وسمت أجداثهم الطاهرة، وعلى رأسهم أبو العباس المرسى ، وقد توفى ودفن بها سنة ٦٨٦هـ، واحتفلت الإسكندرية فى العام الماضى بمرور ٧٠٠ سنة على وفاته بمسجده ، وكان لى شرف إصدار كتاب عنه بهذه المناسبة .

عشرون سنة ضائعة:

لقد أدركت المدرسة الشاذلية بالإسكندرية عشرين سنة من حياة القبارى أى من سنة ٦٤٢ هـ حيث دخلوا الإسكندرية إلى أن توفاه الله سنة ٦٦٢ هـ فهل التقى أحد من الشاذلية به ؟ وماذا كانت ثمرة هذا اللقاء ؟

لم يكشف أحد من المؤرخين إلى الآن عن الجواب على ذلك ، مع طول هذه الفترة وأهميتها فى تاريخ الثقافة بالإسكندرية، ولاسيما أن القبارى مالكى المذهب، والشاذلية كذلك ، وهؤلاء جميعا من أهل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن رجال الزهد فى الدنيا ، وطلاب الحلال من كل وجه حلال ، بل كانوا جميعا ممن يزهدون فى التقرب إلى السلطان ، فما كان أحدهم بحاجة إليه ، وإن كانوا لا يستنكفون من المواجهة الصريحة معه ، إذا لزم الأمر ، لدرء ضرر عام، أو جلب نفع عام ، وكان القبارى من هذا الطراز .

نعم إن فراغا هائلا من الغموض قد اكتنف العلاقة بين القبارى من جهة، وبين الشاذلى وأبى العباس من جهة أخرى ، فليس لدينا من المعلومات ما يشير إلى أى لقاء تم بينهم ، لا عن خصومة أو تنافس أو صداقة أو غيره ، ولكن ابن المنير (— ٦٨٣هـ) والعز بن عبدالسلام (— ٦٦٠هـ) والشاطبى (— ٦٧٢هـ) وابن الحاجب (— ٦٤٦هـ) ومكين الدين الأسمر (— ٦٩٢هـ) والبوصيرى (— ٦٩٤هـ)

وياقوت العرشى (ــ ٧٣٢هـ)، وعلى رأسهم جميعا أبو العباس المرسى (ــ ٦٨٦هـ) قد علموا بوجود الزاهد الورع المنقطع الشيخ القبارى (ــ ٦٦٢هـ) بالإسكندرية.

وكانت بينه وبين بعضهم صلات قوية، كابن المنير والعز بن عبد السلام، وتمت بينهم لقاءات ومقابلات ومناقشات، ولكن لا نعلم شيئا من هذا قد تم بينه وبين الآخرين، تماما كما كان الطرطوشى (ــ ٥٢٠هـ) والسلفى (ــ ٥٧٦هـ) على قيد الحياة فى وقت واحد بالإسكندرية، ولم يشر المؤرخون إلى علاقة تمت بينهما، اللهم إلا ما ذكره السلفى مرة فى (معجم السفر) من أنهما التقيا فى جنازة أحد علماء الإسكندرية، وفيما عدا ذلك لا نعثر على لقاء فكرى بين شيخ المالكية وشيخ الشافعية؛ وكأن أحدهما كان متجها إلى الشرق، والآخر إلى الغرب، وأدار كل منهما ظهره للآخر، وهذه ملاحظة منا لهذه الظاهرة التى نسجلها على مؤرخى الإسكندرية بما يدعو إلى الأسف الشديد.

من نبع واحد:

وفى هذه الحقبة، كان بالإسكندرية عدة رباطات مشهورة، هى فى حقيقتها مدارس علمية منها (رباط سوار) و (رباط الواسطى) المنسوب إلى العارف بالله أبى الفتح الواسطى، وبها أيضا (بستان القبارى)، وبها من الجوامع الجامعة ما ذاع صيته كالجامع الغربى أى جامع العطارين الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى، فى أواخر العصر الفاطمى، وقد اتخذه أبو العباس المرسى مدرسة للشاذلية فى ظل دولتى الأيوبيــــة والتركية، فتهافت الناس عليهم، تهافت الفراشات على النور.

أبو العباس المرسي ـ على طريقة شيخه ـ ماض فى الطريق: يعلم الناس ويهديهم

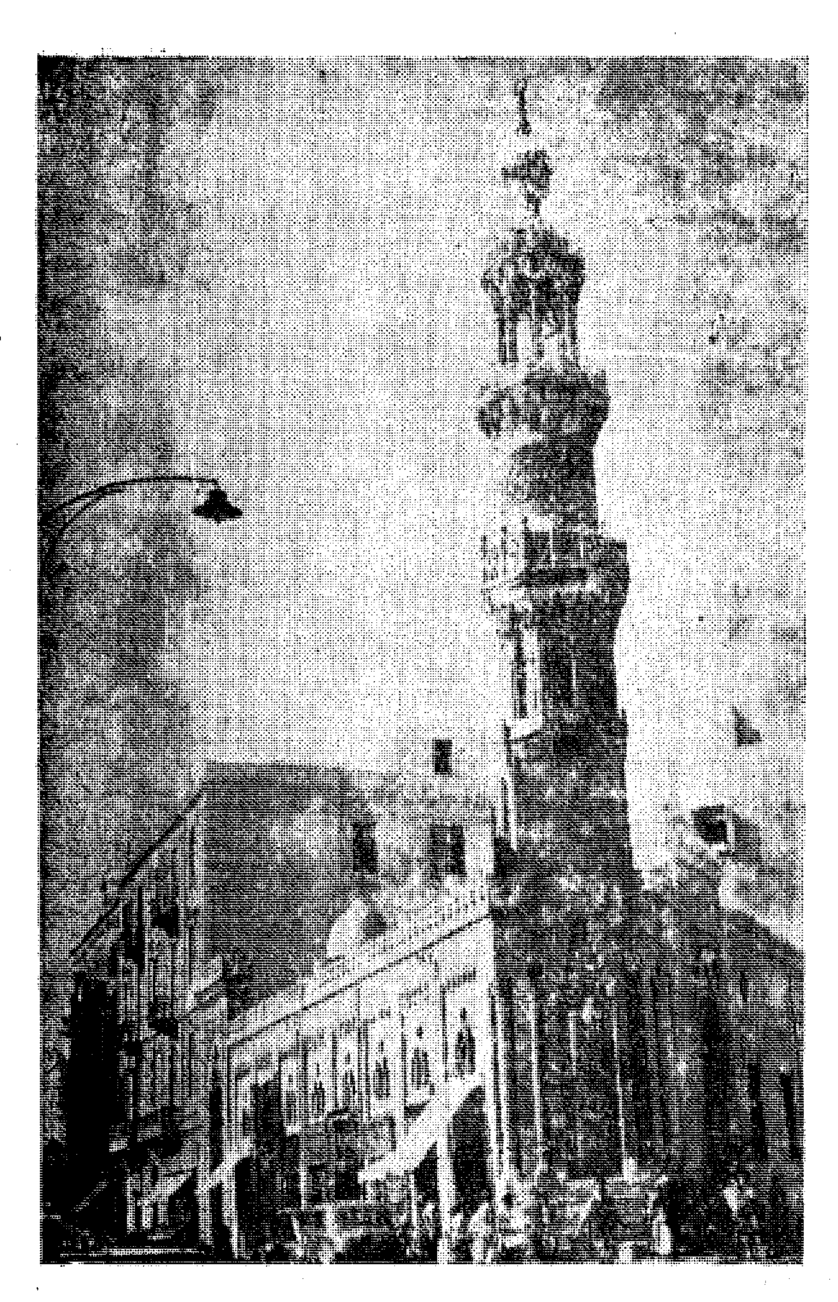
إلى الخير ، ويعلى فيهم كلمة الحق ومكث على ذلك بينهم فى الإسكندرية ٤٤ سنة — كما يقول ابن عطاء الله — « ما رأى وجه متوليها ولا أرسل إليه » ولما طلب المتولى — أى والى الإسكندرية — الاجتماع به رفض أبو العباس بكل إباء ، وحاول صاحبه زكى الدين الأسوانى أن يجعله يعدل عن ذلك ، وتوسط له عنده ، فما زاد إلا رفضا وإصراراً وقال له :

« يازكى لست ممن يلعب به ، والله إنى ألقى الله ، ولا يرانى ولا أراه » .

وهذا ما حدث ، فقد عاش أبو العباس بالإسكندرية ٤٤ سنة ، لم يرفع خلالها فى يوم من الأيام قدما إلى حاكم أو وزير أو سلطان .

وكانت المدرسة الشاذلية فى الإسكندرية — على يد شيخها ثم خليفته أبى العباس المرسى من بعده — ذات تعاليم دينية أصيلة ، ترفع من شأن الدعوة الإسلامية الصحيحة المتسمة بالاعتدال ، والزهد ، والترفع عن الحاكم ، وإعلاء قيمة العمل والاحتراف ، لأن العمل من أجل العيش جهاد فى سبيل الله ، وللمدرسة أحزاب وأوراد وأدعية شائعة ذائعة ، وإصلاحات صوفية عميقة ، أما القبارى فكان لايزال فى عزلته بالبستان ، ومن هنا انصرفت عنه الجماهير ، واتجهت إلى أبى العباس المرسى ومدرسته .

ومع ذلك جاءت المدرسة الشاذلية إلى الإسكندرية لتكون بتعاليمها تلك امتداداً للنهج الذى سار عليه القبارى فى التزامه العفة والتعفف ، والبعد عن الحرام والترفع عن الحاكم ، ورفع راية الإصلاح الاجتماعى ، وتصحيح ما أفسده المتصوفة فى الدهر من التقشف والتسول ، بينما تدعو الشاذلية إلى تمجيد العمل ، والتمسك بالعمل كوسيلة لكسب الحلال ، وإثراء الحياة الدنيوية بما يعين على إقامة الشعائر



﴿ جامع العطارين بالإسكندرية ﴾

الدينية ، طمعا فى ثواب الآخرة ، ومادام القبارى ومن بعده يتمذهبون بمذهب الإمام مالك ، والطريقة هى هى ، فإن الرأى العام فى الإسكندرية قد كسب من الجميع مبادىء راسخة من علمائها ، الذين يصدرون من نبع واحد، هو الكتاب والسنة، وهم جميعا على وفاق يحسدون عليه.

مع الملوك :

وقبل أن نسأل كيف كان القبارى من رجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ كما وصفه ابن كثير ، ومن بعده السيوطى ، ثم المناوى ـ نرى لزاما علينا أن نذكر الملوك والسلاطين والأمراء الذين كان للقبارى صلة بهم ، ومدى هذه الصلة وأثرها فى منهجه كزاهد ورع اعتزل الناس .

وفى «مقامات» القبارى ـ أو سيرته التى كتبها بن المنير ـ إشارات سريعة إلى عدة محاولات من ذوى المكانة والسلطان لمقابلة القبارى والاجتماع به ، ولكنها إشارات عابرة ، ليس لها تواريخ فيما ذكره ابن المنير ، كان القصد منها استخلاص العبرة من تلك المحاولات ، بل إن محاولات أخرى قد جرت ولم يذكرها ابن المنير ، ولاندرى سببا لذلك مع أنه توفى بعده بنحو عشرين سنة .

علينا إذن أن نعرض لها فيما يلى ، على ضوء ما لدينا من حقائق التاريخ، وتسلسل الأحداث ، وفى أى المناسبات تم اللقاء أو لم يتم ، حتى تكتمل الصورة فى ذهن القارىء، وليتمكن من ربط الأحداث بعضها ببعض ، وفهم ما ينطوى عليه وجدان القبارى إزاء هذا السلطان أو ذاك الأمير ، وغيرهما من الملوك والولاة وأصحابهما .

ترى هل كان القبارى متأثراً بموقف الطرطوشى الذى مات قبله بنحو قرن

ونصف قرن من الزمان ، أم هل ترى كان أبو العباس المرسى متأثراً بهذا وذاك، وقد توفى بعد الثبارى بنحو نصف قرن من الزمان؟

والجواب الصحيح أنه لا هذا ولا ذاك ، وإنما هى الصدفة التى جعلت من الإسكندرية قاعدة ثابتة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو مبدأ هام من مبادىء المعتزلة ، وإن كان علماء الإسكندرية من أهل السنة والجماعة ، والشاذلية بالذات كانوا من الأشعرية، ولم يكن أحد منهم من أصحاب (الاعتزال) .

- ٦ -

ملوك على الباب

من الطارق ..؟

همتي همة الملوك ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفراً
«الإمام الشافعي»

كان القباري - عليه رحمة الله ورضوانه - عزيز النفس، عالي الهمة، رفيع القدر، لا يقبل الذل والهوان «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين».

قال ابن المنير إنه كان «عزيزاً بعز الإيمان ولا يذل نفسه، ولا يستشعر الذل من مخلوق، ولا ترد خطبته ولا يشتبه بالواقفين موقفه».

ماذا يريد ؟

لم يعرف عن القباري يوما من الأيام أنه وقف لأحد من الواردين عليه وهو جالس، بل كان زائره - مهما علت مكانته - هو الذي يقف على سياج بستانه، ويظل واقفا مدة تطول أو تقصر، والقباري منصرف إلى عمله في البستان، غير مهتم بهذا الواقف، وإنما كان يلاحظه من طرف خفي، بل بقلب تقي، ليتحقق بعين بصيرته من مقصده، فإذا حدثه وجدانه بالرضى عنه لحسن مقصده، أقبل عليه بالحديث والإكرام، وإلا تركه وشأنه لينصرف من تلقاء نفسه، راضياً أو ساخطا.

ولم يكن هذا المسلك من القباري إلا نتيجة لموقف سابق له مع اثنين من

الجنود جاءا إليه ، وهو يجنى البلح من أعلى نخلة له فى البستان ، وكان أحدهما راكبا ، والآخر قد نزل من فوق دابته احتراما له ، فأعطى القبارى بعض البلح لمن نزل ، على عادته من إكرام القاصدين ، وقدم للآخر الذى جمح به فرسه ، وظل القبارى ، واقفا والطبق فى يده ، فاستشعر بالذل أمام عبد حقير .

قال : « فقلت ولماذا والمؤمن لا يذل نفسه ، وقد تركت ما يلزمنى إلى ما لا يلزمنى ، هذا ضياع ، فعقدت من حينئذ ألا أكلم راكبا ولا أناوله » .

وصمم القبارى فيما بينه وبين نفسه على ألا يسارع إلى كل واقف على مدخل البستان ، حتى لا تتعطل مصلحة كل منهما ، فقد جاءه الوالى الجديد على الإسكندرية ، بعد يومين من وصوله إليها ، فلما فتح له الباب وسأله عن حاجته عرف أنه جاء ليطلب الإذن بالدخول عليه ، فقال له القبارى : « لا آذن لك ، لأنكم عندى كالمرض ، لا آذن له إن استأذن ، ولكن إذا دخل بقضاء الله وقدره ، صبرت عليه فكذلك أنتم » .

ومرت على هذه الحكاية خمس وعشرون سنة ، تقلب فيها هذا الوالى بين الولايات بمصر والشام ، حتى عاد بعدها إلى الإسكندرية ، والتقى بالقبارى ، وذكره بها فتذكرها ، وأخبره بأنه كان يحكيها لأهل الشام ، على سبيل الفخر بعزة النفس عند القبارى ، واعتزازه بدينه وكرامته .

خير لهم أن ينصرفوا

كان القبارى عميق التأمل فى خبايا النفوس ، حريصا على التعرف على مقاصد أصحابها ، وعلى ضوء ما كان يوحى به إليه وجدانه ، كان يتخذ الموقف المناسب إزاء كل قاصد ، فقد كان أخشى ما يخشاه أن يأخذ الغرور على الزائر أقطار نفسه ، فيظن أن مجرد الإذن له من القبارى بالدخول والتحدث معه ، دليل على الرضا عن أحواله وأفعاله ، فيشيع فى الناس أنه قد حظى بالرضى والقبول من زاهد الإسكندرية

فيفعل فى أهاليها ما يشاء من عسف وخسف، وليس هذا بنافعهم «ولكن ينفعهم – كما يقول – أن لو أقلعوا عما أنصحهم فى الإقلاع عنه، وإلا فمجيئهم أقرب لأن يكون مضرا بهم، من أن يكون نافعا لهم، لأن الحجة تقوم عليهم بالمجىء زيادة، ولو علمت قابلا للنصيحة أو ظننت، لرحلت إليه أنصحه».

فالعبرة إذن من الموافقة على دخول الزائر الحاكم عليه إنما ترجع إلى النتيجة المترتبة على الزيارة بالنسبة للزائر، لا القبارى نفسه، ويدور القبول أو الرفض حول محور رئيسى، هو أن يلتزم الزائر جانب العدل فيما ائتمنه الله عليه من حقوق العباد، وقضاء حوائجهم، وقبوله النصيحة من القبارى وغيره من الناصحين، وكلمة الحق ولو كان طعمها مرا، ولا مانع لديه أن يسعى هو إليه ناصحا مرشدا، لايخشى فى الحق لومة لائم، فذلك جهاد فى سبيل الله، ومن أجل هذا يقول الله عز وجل: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» ويقول النبى عليه السلام «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

وفى الحديث «أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر».

مع خلفاء صلاح الدين :

ولابد أن يكون القبارى قد سمع فى صباه عن زيارة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى للإسكندرية ومعه ولداه وهما صغيران للاستماع إلى السلفى وإلى ابن عوف من بعده.

ولما مات صلاح الدين زارها ابنه الملك العزيز عثمان مرتين: فى عامى ٥٩٢هـ و٥٩٥هـ، للإشراف على شئونها، وتدبير مصالح أهلها، اقتداء بأبيه، وإحياء لذكرى اصطحابه إليها وهو صغير، وفى سنة ٥٩٢هـ بالذات كانت الإسكندرية – كسائر المدن المصرية – قد حل بها الطاعون الفتاك، فأهلك الحرث والنسل، وعمت

المجاعة ، فجاءها الملك العزيز يتفقد أحوالها ويرعى شئون أهلها ، وفى المرة الثانية قضى بها بعض الوقت فى الصيف ، ثم عاد إلى القاهرة .

أما الملك العادل أبو بكر - أخو صلاح الدين - فقد شمل الإسكندرية أيضا برعايته وزيارته ، فجاءها ثلاث مرات لكشف أحوالها ، وتنظيم أمورها فى سنوات ٦٠٨ و ٦١٢ و ٦١٣ وكان عدد تجار الإفرنج بها - كما يقول المقريزى - ثلاثة آلاف ، فخف إليهم الملك العادل وصادرهم وزج بهم فى السجون ، وعنى بحصونها وأسوارها وإصلاح مسالحها وأبراجها .

وسار على هذه السنة ابنه الملك الكامل محمد ، قبل أن يتولى السلطنة ، فقد زارها وهو نائب عن أبيه عام ٦٠٧ أو سنة ٦٠٩ إذ قدم إليه أخوه الملك المعظم عيسى من دمشق على فرسه ، فوصل بعد ثمانية أيام إلى الإسكندرية ، فتلقاه الكامل بالحفاوة والترحيب ، وقد وصف لنا ذلك بإسهاب سبط ابن الجوزى ، الذى زار الإسكندرية ، وألقى دروسه على أهلها ، فى معظم مساجدها ، وتركوا فى نفسه أحسن الأثر ، بما تركه هو فى نفوسهم من أحسن الأثر .

وتسلطن الملك الكامل بعد وفاة أبيه الملك العادل سنة ٦١٥ هـ وكان يكثر من التردد على مصر والشام ، يتفقد أحوالها ويعزز الاستحكامات فيها لصد غارات الصليبيين على الثغور ، وتجديد القلاع والمسالح ، وظل على هذا النهج ، حتى توفاه الله بقلعة دمشق سنة ٦٣٥هـ ، وكان مجاهدا صادق الجهاد فى سبيل الله ، وله إصلاحات عمرانية وإنشاءات دينية أهمها (المدرسة الكاملية) أنشأها بالقاهرة لعلوم الحديث ، ومع اعتزازه بدين الإسلام الحنيف ، كان متسامحا مع أقباط مصر ، فقد منحهم أرضا واسعة أقاموا عليها كنيسة سانت كاترين بالإسكندرية ، ولا تزال قائمة إلى يومنا هذا ، وبأيديهم وثيقة الوقف من عهده ، ولم تكن مدة حكم الملك الكامل عشرين سنة فقط ، منذ خلف أباه العادل ، حتى خلفه ابنه العادل المسمى باسم

جده ، ولكنه كان قد قضى عشرين عاما أخرى قبل السلطنة نيابة عن أبيـــه ، كما قلنا ، وفى خلال هذه الأعوام الأربعين ، كان يتردد على الإسكندرية ، أحد الثغور المصرية ، ذات الأهمية الكبرى فى الدفاع عن حوزة الإسلام ، وجهاد أعدائه الذين روعوا المصريين الآمنين فى دمياط ، وانتصر عليهم فى المدينة التى أنشأها وهى المنصورة ، ووقع فيها لويس التاسع ملك فرنسا أسيرا ، ولا تزال دار ابن لقمان على حالها بالمنصورة تشهد بأمجاد هذه الذكريات .

ويحدثنا المقريزى أن الملك الكامل قد زار الإسكندرية سنة ٦٢٨ هـ ، وهو يومئذ ملك مستقل عليها ، ولم يذكر لنا المقريزى دافع هذه الزيارة وأسبابها على غير العادة التى ألفناها عند مؤرخى زيارات بنى أيوب ، أمثـــال ابن واصل وسبط ابن الجوزى . فما السر ؟

الملك بالباب :

ومهما يكن السبب فقد قدم الملك الكامل لزيارة القبارى فى بستانه ، وكان عمر القبارى لا يزيد على اثنين وأربعين عاما ، أى وهو فى فترة النضوج الفكرى والشبيبة المكتملة من حياته ، وهو أحد أدوار الأزمنة بالشموخ والعزة ، التى لابد من أن يمر بها الإنسان فى الحياة السوية ، ولنترك القبارى يحكى لنا بلسانه عن زيارة الملك الكامل له . فيقول :

« لما جاء الملك الكامل الإسكندرية وخطر له أن يخرج إلى عندى ، جاءت له مقدمات من مماليك وحجاب وصادفونى أصلى (أشعـــل) الوقود لعشائى ، وكنت حينئذ لا أجيب داخلا علىّ ، وكان عندى أحد المعتادين المترددين إلىّ من أهل البلد ، فقلت له : ضم إليك ثيابك ، فإنك لا تطيق مجالسة هؤلاء ، وقلت له : أتظن الكرامة فى أن يجىء ؟ فقال : ربما ، فقلت : الكرامة فى أن ينصرف ،

لأنه إن دخل دخل محبا ، وخرج مبغضا ، وإن انصرف جاء محبا وراح محبا ، فسلم مني وسلمت منه ، وربما أغضبه ذلك ، فلا نصيحتي تقبل . ولا هو من الغضب يسلم ، فالسلامة والكرامة في الحيلولة بيني وبينه ، ثم أقبلت على ما كنت فيه ، إلى أن جاء إلى الباب فقيض الله له بعض أصحابه ، فقال له : المملكة عظيمة ، وقد صحبك العسكر بجملة وأنت بين أمرين : إما أن يأذن لك أو يحجبك ، وإذا أذن لك صرفك كالآحاد (أي كسائر الأفراد) ، ونصحك بما لا تطيق فعله ، فإن فعلت تغيرت قواعد كثيرة ، وإن تركت قامت الحجة عليك ، والمصلحة عندي الاقتصار على الوصول إلى الباب ، فبلغني أنه قال : خيرة الله ، وقد حصلت النية ، فانصرف راجعا »

الملك يرجع بخفي حنين :

وهكذا حسب الله تعالى .. الملك الكامل ، قبل أن يحجبه القباري ، الذي بلغ من تأثيره في نفس الملك ما رأيناه في هذه الرواية ، وخشي أن يلقاه فينصحه بقوة إيمانه وإخلاصه لله والناس ، بما لا يقدر عليه ، فتتغير الأنظمة الحكومية المتبعة في عصر الأيوبيين ، فالتزمه الحجة من قول كان سيلقيه عليه زاهد الإسكندرية ، وهو في بستانه المتواضع ، فيشيع أمره في الناس ومن ثمة يقال إن الملك عجز عن الوفاء بما التزم به أمام الشيخ ، ولذلك انصرف الكامل من تلقاء نفسه ، ولم يظفر بلقاء القباري ، وهو الذي كان أزهد الناس في القدوم على الملوك والسلاطين ، فإذا بالملوك والسلاطين يقفون على باب بستانه بالساعات الطوال ، وهم على ظهور الخيل ، ومن حولهم الخدم والحشم ، وعليهم الزرد والحديد والأبهة والعظمة ، فيأنف زارع البستان المتطرف بين الجبال والكهوف والصحراء الجرداء في غرب الإسكندرية ، أن يلقى الملوك ، بل يرفض لهم طلبهم في

الدخول عليه بكل إباء وشمم ، حتى لا يضيعوا وقته سدى ، ثم ينصرف إلى عبادته أو إلى عمله فى البستان ، ليتمتات من ثماره و يطعم منها الناس ، راضيا بما قسمه الله له من رزق حلال ، غنيا عن الناس ، بعيدا عن أوزارهم .

هل هناك ثأر :

وعندى أن السبب الدفين الذى منع القبـــارى من التصريح للملك الكامل بمقابلته — على ماله من مكانة المصلح المجاهد — أن بعض كبار الأيوبيين قد ترك أثرا سيئا فى نفوس أهل الإسكندرية عامة ، ومشايخها خاصة ، فمثلا توارن شاه أخو صلاح الدين الأيوبى تولى أمور الإسكندرية مدة يسيرة ، وبها توفى وفى أرضها الطاهرة دفن ، وكان يعكف على اللهو والعبث ، وكما يقول ابن تغرى بردى « أقام بها — أى الإسكندرية — معتكفا على اللهو » .

وكذلك الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخى صلاح الدين ، خرج إلى الإسكندرية سنة ٥٨١ هـ نائبا عن عمه ، لكشف أحوالها ولإخماد حركة قام بها العوام ضد الأفرنج ، نهبوا فيها مراكبهم ، فقبض على كثيرين ، ومثل بهم أشنع تمثيل ، مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين فى الإسكندرية ، وتناقلوا ذلك فيما بينهم ، ولابد أن القبارى قد علم بذلك من المترددين عليه .

ومن هذا يتبين لنا — فى تبرير كراهية القبارى للقاء المـــلوك ، أن زاهد الإسكندرية كان لايزال متأثرا بما فعله أخو صلاح الدين وابن أخيه من عمل غير صالح فى بلده ، فزهد فى لقائهما أو على الأقل فى تقديرهما ، مما جعل ذلك ينعكس على الملك الكامل الذى جاءه بقصد الزيارة والتبرك ، فصده ورده ، فى عزة وإباء ، وهذا هو رأينا الخاص فى تعليل هذا الصـــد وذاك الرد بالنسبة للملك الكامل .

ويجب ألا ننسى أيضا إلى جانب ذلك أن الملك الصالح هو الذى فى عهده تم تطهير خليج الاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ وقد عرفنا موقف القبارى من هذا الحادث، الذى على أثره أعان فى الملأ أنه سيغادر شرق الاسكندرية إلى غربها، بسبب ما لحق هذا العمل فى الخليج من تسخير الأرباب، فرفع القبارى عقيرته بالاحتجاج الشديد، وكانت مظالم دولة الأتراك قد زكمت الأنوف، ولم يعد الأهلون يطيقونهم كما سنرى.

ومع ذلك كان أصحاب الملك الكامل هذا وحاشيته، يترددون على القبارى، فيسمع لهم ويسمعون له فى أدب واحتشام، وهم بالطبع أقل من الملك شأنا ومقاما، فقد جاءوا يتعلمون منه ويسألونه الجواب على مايختلج فى نفوسهم من حيرة وسوء فهم وإدراك، فلا يخرجون من عنده إلا وهم فاهمون مدركون، بما له من قوة الحجة وصدق اليقين.

وجاءت الحاشية:

جاؤوه وهم فى بذخ وعظمة، فسأله أحدهم «ماللنـــاس يتحدثون بأنك لاتدعو لأحد معين، ويعتقدون ذلك؟ . فقال له القبارى: أحوجتنى لإقامة الحجة عليك! ألست تعلم أن الدعاء هو طلب العبد الضعيف من الرب الرحيم؟ فقال: بلى، فقال القبارى أيطلب العبد الضعيف من مولاه برقة أو بقسوة؟ فقال: برقة، فاستطرد القبارى: يقول للسائل: ماوجدتها منك، بأى لسان أدعو، وإن شئتم الدعاء باللسان فهو البندق الفارغ، خرج منه ماشئت بلا قلب».

وجاءته حاشية الملك الكامل أيضا فأشار أحدهم إلى الآخر، فقال للشيخ القبارى ليعرفه به هذا طبيب السلطان، وأخذ يمدحه، ويثنى عليه، بينما يتواضع الطبيب ويقول: مانحن أطباء أصلا، إنما الأطباء هم الأولياء، وأشار إلى القبارى، وقال له القبارى عن علم ودراية:

« اعلم أن المشار إليه بالولاية مثله كمثل الطبيب ، كم عالج الطبيب من عليل، وتعليله فيه لا يفيد » . وعاد يسأله القباري :

« أما داويت أحدا فمات ولم ينجح فيه الدواء ؟ »

قال : كثير . فقال القباري : « وكذلك الجانب الآخر ».

هكذا كان يقف القباري من الملك الكامل ، وقد رفض أن يسمح له بالدخول عليه ، وهكذا كان يقف من حاشية الملك ، وقد سمح لهم أن يدخلوا عليه ، وأن يوجهوا إليه السؤال تلو السؤال، فيرد عليهم على طريقة سقـــراط ، باستنتاج الحقيقة عن طريق السؤال والجواب ، وهو على يقين مما يقـول ، وإيمان بأنه إنما يصدر في قوله وفعله عن أصول الدين في وضوحها وسماحتها .

الف دينار :

أما الملك العادل فقد تاقت نفسه إلى الاجتماع بالقباري ، والتماس رضاه، فبعث إليه بألف دينار ، حملها إليه خادم من خواصه ، وأرسل عالما مشهورا من علماء الإسكندرية المعتبرين، يتوسط للملك العادل لدى القباري في قبولها، والإذن له في مقابلته ببستانه ، فرفض رفضا باتا وقال للخادم: «لا يغرنكم هذا بمواعيده وأطماعه ، رد الدنانير إلى صاحبك وقل له : لو عرفت أصحابها لأشار عليك أن تعيدها إليهم ، ولكن هذا فات وأنا لا أتقلد وسخا ، لا آخذاً ولا معطيا».

وإنه لموقف باهر ، ذلك الذي وقفه القباري من دنانير الملك العادل ، فلم يقبلها صدقة ، ورفض أن ينتفع بها ، وأن ينفع الناس بها ، وهو يعـلم أنها قـد جمعت من أربابها المظلومين واعتبرها (وسخا) وكأني به قد تأثر بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاءه عمه العباس يطلب منه أن يستعمله على الصدقة، فأبى أن يجعله على (أوساخ الناس) . ونعم المؤتسي والمؤتسى به، فقد كان القباري من الحرص على دينه ، بحيث رفض أن يلقى ربه وفي عنقه أغلال هذه الدنانير سواء أخذها

لنفسه أو وزعها على الناس، الذين أخذت منهم أو من بعضهم .

وقد جرت بين الملك العادل - الذى سماه الأمراء باسم جده العادل أبى الملك الكامل - وبين أخيه نجم الدين حروب طاحنة، وانقسم العسكر إلى فريقين : فريق مع العادل ، وفريق مع نجم الدين الذى قدم من حلب إلى مصر، وتغلب على أخيه وخلعه من السلطنة ، وسجنه بالقلعة ومات شهيداً ولم تطل مدة حكمه عن سنتين ، حيث بويع أخوه سنة ٦٢٧ هـ ثم قتل العادل فى سجنه سنة ٦٤٠ هـ

وخلا الجو لنجم الدين الذى أطلق عليه اسم الملك الصالح وعمره إذ ذاك ٣٤ سنة فاستكثر من المماليك - كما سبق أن قلنا - وضاقت بهم القاهرة ذرعا ، لما أشاعوه فيها من مظالم ، وفى عهده أغار الإفرنج على دمياط ، فنادى الملك الصالح بالجهاد، ونزل بالجيوش على المنصورة، ففاجأه المرض حتى مات سنة ٦٤٧هـ

النار هنا وهناك :

وتوالت بعده الأحداث سراعا ، وانقضت الأيام والسنون فى اغتيالات وحروب داخلية وخارجية ، حتى انقرضت الدولة الأيوبية سنة ٦٥٠ هـ ،وحكم الترك مصر ، وصارت لهم دولة تعرف باسم « دولة المماليك البحرية » ، وسيوف المجاهدين مشهورة فى وجوه المغيرين من الإفرنج على السواحل والثغور ، على الرغم من الفتن الداخلية القائمة على حب الرياسة وامتلاك زمام الأمور .

وتمضى الأحداث على هذا النحو: بين صد غزوة من الخارج، أو مقاومة ثورة فى الداخل . أو غلاء فاحش أو انخفاض فى مستوى النيل ، أو انتشار الفساد بسبب الدعارة والخمر والحشيش ، حتى يأتى عام ٦٦٢ هـ - وهو العام الذى توفى فيه القبارى - وسلطان الزمان الظاهر بيبرس ، الذى اغتال القائد المظفر (قطز) هازم التتار فى (عين جالوت) سنة ٦٥٧ هـ ، وكان قطز هذا محبوسا قبل ذلك بسجن الإسكندرية، قبل أن ينوب بالشام ويتسلط عليها.

كانت هذه هى أحداث الفترة الأخيرة والخصبة من حياة القبارى ، بعد الملك الكامل ، ثم ابنه العادل الذى انتهى حكمه سنة ٦٣٦ هـ ثم خلفه أخوه الملك الصالح الذى مات سنة ٦٤٧ هـ وعمر القبارى يومئذ ستون سنة .

الملك الصالح :

ولقد ذكر لنا ابن المنير ما كان من الملك الصالح، عندما علم من أحد الحجاب أن القبارى قد اعتزم مغادرة الديار المصرية ، تخلصا من مشكلة شرعية هى : هل من المباح أن يعمر الإنسان أرض الموات أى البور ، وبعد تعميرها واستصلاحها تصير ملكا له ؟

وكانت المسألة خلافية تناقضت فيها آراء الفقهاء وأصحاب المذاهب ، وبلغ ذلك الملك الصالح فاهتم بالأمر غاية الاهتمام ، وبعث ساعيا بكتاب عاجل إلى القبارى، وفيه الإذن المطلق المفوض له فى الإقامة بغربى الإسكندرية كما يشاء ، فلما تلقى الكتاب قال .

« هذا إذن وما استأذنته » .

ورجع عن نية السفر إلى خارج مصر ، ما دام عنده إذن من السلطان بحق إحياء الموات ، وهو شرط عند بعض المذاهب الإسلامية فى تملك الأرض البور .

وليكن معلوما أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يقم بأية زيارة للإسكندرية خلال مدة حكمه ، وذلك لانشغاله بصد هجمات الإفرنج على دمياط ولم يمنعه ذلك من تتبع أخبار الإسكندرية وأعلامها، واهتمامه بما وصله من تهديد القبارى بمغادرة الديار المصرية ، على أن من مظاهر اهتمامه بالمدينة ، ما ذكره المؤرخون عنه فى سنة ٦٣٨ هـ حيث أمر بتولية الأمير بدر الدين بن باخل على الإسكندرية، وكان واليا على مصر ، وعرف بالكفاية والعدل والحزم .

وفى سنة ٦٤١ هـ أى فى عهد الملك الصالح، زار الإسكندرية عالم كبير ومؤرخ مشهور، هو سبط ابن الجوزى الذى يقول :

« قدمت الإسكندرية، فوجدتها كما قال الله تعالى (ذات قرار ومعين) مغمورة بالعلماء، ومعمورة بالأولياء كالشيخ محمد القبارى والشاطبى وابن أبى شامة ».

أربعة من ملوك بنى أيوب لهم مكان فى سيرة القبـــارى، هم على التوالى: العادل والكامل والعادل والصالح، بل يجدر بنا أن نقول إن القبارى كانت له مكانة عندهم، من الإجلال والخشية، حتى كانوا يتمنون أن يأذن لهم بالحضور عنده وهو يأبى ويرفض، ويسترضونه وهو فى مكانه من البستان لا يبرحه، ولا يشد الرحال إليهم، عن كبرياء الزاهد فى الدنيا، وترفع الواصل بربه، الخالق الرازق، عن عطاء الملوك والسلاطين.

مرحبا بالحاجب :

أما الحاجب الذى بعثه الملك الصالح إليه بالإذن الذى ذكرناه، فقد شغل بال القبارى حتى قال عنه إنه « تعرض لى بالإحسان وأنا أخاف من الإحسان فإنه كالسوس فى الأسنان، وقد علم الله أنى ما تعرضت لذلك، وعاد يحدث نفسه : تلزمنى مكافأة هذا المذكور (الحاجب) » ورتب على ذلك حكمة مأثورة ذهبت مثلا أعلى فى الأخلاق الاجتماعية إذ يقول :

« لولا الطباع لكان المحسن هو المسىء، والمسىء هو المحسن، لأن المحسن يأخذ من حسناتك، والمسىء يعطيك من حسناته ».

وهذه المقابلة الطريفة بين الإساءة والإحسان ـ على هذا النحو الذى جاء به القبارى ـ ذات مغزى أخلاقى بعيد، تتمشى مع مذهبه الشامل فى التحرز، ولا تشذ عنه، فهو حريص على أن ينال الثواب، حتى ولو كان ثمرة الصـــبر على

إساءة لخمته من شرير ، ويأبى الإحسان من أحد، حتى لا يكون جزاؤه على هذا العمل الصالح انتقاصا من حسنات من أحسن إليه .

ونورد هنا مثلا آخر من هذا النوع ، جاء فى صورة شعرية جميلة . يقول فيها صاحبها .

أهـدى إلىّ أبو الحسين يدا
أرجو الثواب بهـا لديه غدا
وكذاك عادات الكريم ، إذا
أولى يداً حسبت عليه يدا

وعلى أى حال فالفرق واضح بين الدوافع التى حدت بالقبارى إلى ما قال ، تلك التى حفزت الشاعر إلى هذه اللفتة البارعة من الحكمة المنظومة ،التى أحالت المتفضل بالإحسان متفضّلا عليه .

والأمراء :

وإذا كانت تلك هى طريقة القبارى فى معاملة الملوك والسلاطين الذين يأتون وهم فى أيام جهاد وغزو ، وجهودهم موزعة بين الإصلاح الداخلى والدفاع عن الوطن فى مصر والشام ، ليحظوا بلحظة لقاء مع هذا الزاهد المبجل ، والتماس البركة والرضا منه ، ورغبة فى الأخذ عنه بما يفيد فى أمور الدين والدنيا،فما باله مع من هم أقل من الملوك والسلاطين درجة أو درجات .

وقد رأينا كيف كان والى الإسكندرية ـ بمجرد تسلمه العمل بها ـ يسعى إلى القبارى ، يطلب منه الإذن بالدخول عليه فى بستانه ، فيرفض رفضا قاطعا ، ويعتبر أرباب الولايات من الحكام كالأمراض فيتحاشاهم ، ليسلم منهم ، ويسلموا من لسانه ، الذى لا يسكت عن الحق ، ولو كان مرًا فى حلوقهم .

يقول ابن المنير: «وكان الأمراء والكبراء إذا دخلوا عنده ، ارتعدت فرائصهم

من قوته وشدته » . ولم يكن قصدهم من زيارته إلا التحدث إليه، وقضاء أطول مدة معه، لا يطلبون منه فتوى فى أمر غامض عليهم من أمور الدين أو الدنيا وإنما كانوا يسعون إليه سعيا، فيبدأ أحدهم بأى موضوع ليستمعوا إلى ماسيقوله القبارى من حكمة أو نصيحة، هى كل ما يرجون منه، وغاية ما يسعون إليه، والسعيد منهم من حظى بلقائه، ونقل عنه .

فقد زاره اثنان من كبار الأمراء، أحدهما الأمير فخر الدين بن الشيخ، والآخر قريب له، وكان القبارى إذ ذاك على رأس نخلة فى البستان، وقد ظلا مدة طويلة ينتظران فراغه من عمله، فلما نزل، امتد الحديث وطال، ثم طلبا منه أن يضيفهما، وكانت هذه بداية لحوار طريف نورده فيما يلى :

القبارى : أنتم معكم جمع كبير وأنا ألتزم التسوية بينكم، فإذا أعطيتكم ظلمت نفسى، ولابد من إيثار الغير على نفسى، وإذن فالأفضل ألا أقدم لكم شيئا .

الأمير : يمكنك أن تعطى واحداً منا ما تريد أن تعطيه لنا جميعا ونحن نتقاسمه فيما بيننا :

القبارى : لا مانع :

وقدم لهما رمانتين، وتشاوروا فيما بينهم، حتى اتفقـــوا على النزول عن حقوقهم للأمير فخر الدين بن الشيخ .

وهنا أدرك القبارى أنهم يرغبون فى استمرار الحوار، فأحسوا أنه بدأ يضيق ذرعا بهم فأمرهم بالانصراف، حتى لا يشغلوا وقته، فيما لا طـــائل تحته، فقاموا، ولم يقم هو لوداعهم، فتكلم الأمير بالتركية مع صاحبه، كيف لا يقوم لنا، والقبارى بالطبع لم يسمع لصممه كما عرفنا، ولكنه فهم من الجو الذى يحيط بالموقف ما دار بينهما، وكأنما سمع قول الأمير، فقال : أخشى أن أقوم فأقع .

التعظيم لله وحده:

وأدرك الأمير الكبير مفهوم هذه العبارة اللبقة، وما ترمى إليه من أن القيام لتعظيم أحد من الناس - ولو كان أميراً - مما ينافى أخلاق المؤمنين العالمين بحقوق الله والناس، المعتزين بكرامتهم، والذين ارتفعت بهم الهمم إلى ما فوقهم الملوك والسلاطين.

بقى أن نعرف من هو الأمير فخر هذا، وبالرجوع إلى المراجع المعاصرة لهذه الفترة وجدنا أن شأنه كان شأن الوزير الصاحب بهاء الدين، من الإهمال لدى ابن المنير، وقد أشار إليهما إشارة عابرة لا تشبع ولا تروى.

يقول القبارى: «أشار علىّ بعضهم، فقال بطريق التعريض: الماء لا يمشى إلا إذا وجد الواطى». وأدرك بذكائه ما يقصده صاحبه من اتباع السياسة مع الخلق كطريقة للتعامل معهم، ولو كان ذلك على غير أساس من الخلق المتين، فقال له القبارى على الفور:

«لا يمشى أبداً، والذى تشير إليه هو النفاق بعينه».

والقبارى يعلم تمام العلم أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيراً، كما جاء فى القرآن الكريم، ويعلم تمام العلم أن الصراحة والجد فى كل الأمور أولى بالمؤمن الكامل، الذى يعتز بصدق عقيدته وعلو همته، فلا مناص من معاملة الناس بالصراحة التامة، دون مواربة أو مداراة، فليس أحط من مجتمع يتخذ أفراده النفاق عملتهم.

حوار مع امير:

وفى ذات مرة ركب إليه بعض الأمراء فى موكب عظيم، وجاءوا يلتمسون التوبة على يديه، فأغلق الطاق فى وجوههم، وصاح عليهم بالخروج من -قول

الناس ، بعد أن داسوها عنوة واقتداراً بخيولهم ، فقالوا إنها أرض خـــربة ، فقال لهم زاجراً وناصحا :

« الحق والتحرى ألا يدخل أحد مكان إنسان إلا بإذنه » .

ودارت فكرة بخاد هذا الأمير فقال لمن حوله :

« لم لا يبيع الشيخ هذا البستان ويتصدق بثمنه ؟ »

وعلم القبارى بذلك ، فكان رده حاسما صريحا قويا ، يهدر بالإيمان والغنى بما أعطاه الله ، والزهد عما فى أيدى الناس ، ولو كانوا ملوكا وأمراء ، قال:

« هذا رأيك أنت ، أبيع حلالى وأحتاج إلى حرامك ، وإلى الوقوف ببابك، أنا أطلب السلامة وهى رأس المال ، أين الوصول إلى الفائدة » أى أن الصدقة نافلة ، فكيف يتصدق ليطلب النافلة ، ويترك ما هو أهم فى الدين، ويعنى به السعى والكد فى طلب الرزق، وهو فريضة واجبة وأحق من النافلة المستحبة.

والقبارى يتمسك بهذا المبدأ الراسخ ، اعتماداً على رأى لسحنون رضى الله عنه فقد سئل : أيهما أفضل : من لا يقبل أو من يقبل ويتصدق ؟ فقال : من لا يقبل أفضل وأسلم .

وكان هذا مما هيأه الله للقبارى ، ويتمشى مع ما فطره الله عليه ، من كبح لجماح النفس ومجاهدة لها ، فيما تقبل عليه بهواها ؛ ولو كان أخذ الصدقة من هذا متبوعا بإعطائها لذلك ، وكان يرى أن حفظ الكفاية مقدم على الصدقة، فالأول واجب، والصدقة نفل ، والواجب مقدم شرعا على النافلة.

درس للسلطان

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ بعد قطز ، عنى بالإسكندرية أشد العناية ، فجعل على أسطول الإسكندرية شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام ، قائداً أو أمير البحر ، فاستطاع أن يسحق غارة الإفرنج عليها ، عندما

وصلت إلى ميناء الإسكندرية فى شعبان سنة ٦٥٨ ﻫ ، وعاد الإفرنج بعد فشلهم الذريع لحشد مراكبهم ، فما لبثوا أن باءوا بالخيبة ، كما باءوا بمثلها قبل ذلك بأيام .

وأمر الملك الظاهر بيبرس باتخاذ الاحتياطات الدفاعية عن الإسكندرية ، بقتل الكلاب فيها ، وغلق الحوانيت بعد المغرب ، وإطفاء الأنوار ليلا ، ثم عاد إلى دمياط عن طريق البحر .

وفى السنة التالية ، أى سنة ٦٥٩ﻫ ، أمر بعمارة أسوار الإسكندرية وحفر خنادقها وإصلاح المتهدم منها ، وشهد عام ٦٦١ ﻫ أول زيارة قام بها الظاهر بيبرس للإسكندرية .

وكان الوزير الصاحب بهاء الدين - الذى أشار إليه ابن المنير بكل إيجاز - قد سبقه إلى الإسكندرية ، لحل المشاكل التى يعانيها أهلها ، وتحصيل الأموال اللازمة ، فأعطوه عن طواعية واختيار ، ومنها خمس وتسعون لفة من القماش السكندرى ، وكانت قيمتها مائة ألف دينار ، مما يشير إلى ما كانت عليه الإسكندرية يومئذ من رخاء التجارة والصناعة ، ولا سيما الحلل والأمتعة والجوخ الأحمر .

وكانت زيارة الصاحب بهاء الدين تمهيداً لزيارة السلطان بيبرس ، فقد أحسن معاملة أهل الإسكندرية ، فما ضرب ولا شتم أحداً ، وساوى بين المسلمين والأقباط وتجار الإفرنج ، وزينت المدينة عند مقدم السلطان « وأخرج أهل الإسكندرية ما عندهم من العدد والعدة للجهاد ، من القسى والفقارات والزرد والخوذ والطوارق والجنانى والكبورة والكزاغندات ، وزينوا بها الشوارع والأسواق » .

اشترك فى ذلك الفقير قبل الغنى، حتى دخل موكب السلطان من (باب رشيد) - المعروف الآن بباب شرقى - وذلك فى مستهل شهر ذى القعدة سنة ٦٦١ هـ، وصلى الجمعة فى اليوم التالى بالجامع الغربى المسمى بالجامع الكبير أو جامع العطارين.

وكان بالإسكندرية يومئذ قطبان مشهوران ، هما القبارى والشاطبى ، وأبدى السلطان رغبته فى زيارتهما ، فبعث الرسول تلو الرسول إلى القبارى ، فلم يخف ولم يهتم ، وأخيرا سمح له بالقدوم عليه بشرط أن يتلقاه من أسفل البستان - كما يقول ابن واصل - فقال السلطان : « أنا رايح لله تعالى ، فمن أى مكان شاء يكلمنى » واعتبر مجرد الإذن له من القبارى كسبا.

بيبرس يزور القبارى :

وحضر بيبرس إلى بستان القبارى ، ودار الحديث بينهما فى جو هادىء من المباسطة ، ولما جرى ذكر ثغر الإسكندرية وعمارته، طلب القبارى من السلطان - على سبيل النصح - أن يعنى بتعمير الثغر وتحسينه ، فسر السلطان لهذا الطلب ورحب به، وما خرج من عنده إلا ليصدر أوامره إلى المسئولين بإصلاح الأسوار ، وترميم الأبراج ، وتعزيز القلاع ، وشحنها بالرجال والأسلحة ، وأخذ يطوف بنفسه عليها ويبدى ملاحظاته ، وهنا يقول ابن واصل: «فللوقت تقدم السلطان بإجابة إشارة الشيخ ، وعاد بعد ذلك من زيارة الشيخ - أعاد الله بركته - ودار على أسوار المدينة، ونظر فيها ، وأمر بما يجب أمره»

ثم زار الشاطبى الذى توفى سنة ٦٧٢ هـ ، وطلب منه السلطان أن يبدى حاجته فقال :

« ليست لنا حاجة ، لأن راتب السلطان علينا، ونحن من نعمته فى إنعام ، تفضل علينا وعنا» ثم زار قبور مشايخ الإسكندرية ، ودعا عندهم حيث شاء.

وبعد أيام جلس السلطان بدار العدل ، وأمر بتطهير المدينة من الساقطات الداعرات من نساء الافرنج اللائى يفسدن الأخلاق ، ويشعن الفاحشة بين المسلمين فى الإسكندرية ، وذلك بناء على طلب تقدم به إلى السلطان أحد أبناء المدينة ، فاستجاب لطلبه فى الحال .

شفاعة لابن المنير :

ومن جملة مادار بين القبارئ والسلطان أثناء المقابلة أن طلب منه تعيين القاضى ناصر الدين بن المنير على قضاء الإسكندرية وخطابتها ، فأجابه إلى ذلك السلطان ، وإن كان قد عدل عن ذلك فور عودته إلى القاهرة ، فجعل قضاء الإسكندرية لبرهان الدين المالكى، وخطابتها لزين الدين بن أبى الفرج .

وفى سنة ٦٦٢هـ سدت الرمال خليج الإسكندرية ، وغمره الطمى ، ولم يعد صالحا للملاحة النهرية بين الإسكندرية والنيل ، فأمر السلطان بإصلاحه ، وكلف بذلك الأمير عز الدين أمير جاندار ، وكان هذا الخليج موضع اهتمام ملوك بنى أيوب ، ولا سيما الملك الصالح ، وكان العسف يلحق بالناس من جراء ذلك ، بجبى الأموال الباهظة منهم،على يد ناظر الدواوين كما يشير إلى ذلك ابن واصل.

وفى ذى الحجة سنة ٦٦٢ خرج بيبرس للصيد فى(تروجة) من أعمال البحيرة، فى طريقه إلى الإسكندرية، وكان القبارى عليه رحمة الله ، قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، منذ شهر شعبان من هذه السنة ، أى من نحو خمسة شهور ، فلما عاد السلطان زار الشاطبى هذه المرة حيا ، وزار القبارى ميتا ثم عاد إلى القاهرة ، وتوالت الزيارات البيبرسية للإسكندرية سنة ٦٦٨ هـ وسنة ٦٧١هـ وسنة ٦٧٣ هـ ، وفى كل مرة يصلح شئونها ومنشآتها ، ويعمر مساجدها وأسوارها ، ويلعب الصولجان مع الأمراء فى ملعبها الكبير ، وفى أغلب الظن، أنه كان يتذكر فى كل

مرة أول زيارة للقبارى ، ويقرأ له الفاتحة هناك عند قبره المهمل ، الذى انفرد فى غرب المدينة ، فى وسط بستانه الذى صار خرابا لازرع فيه .

ومن العجب أن يذكر غرس الدين خليـــل نائب الإسكندرية ، ومحتسبها مزارات الاسكندرية كسيدى جابر الأنصارى والطرطوشى وعبدالله الراسى وأبى الفتح الواسطى وأبى العباس المرسى وياقوت العرشى ، والشاطبى وابن الحاجب ولا يذكر بينهم القبارى ، لكن العجب يزول إذا عرفنا أن القـبر الذى دفن فيه القبارى كان متطرفا فى غرب المدينة،وكانت الخضرة التى تلفت النظر من خلال بستانه قد اختفت بعدوفاته، فلم تجد من يرعاها من بعده فزالت معالمه، وجفت الأشجار ، وراح القبر وصاحبه فى ضباب كثيف من النسيان .

الوزير عند القبارى :

أما الصاحب الوزير بهاء الدين الذى بعثه السلطان الظاهر بيـــبرس إلى الإسكندرية قبل زيارته الأولى لها ، فقد كان له شأن مع القبارى، مما حدا بناصر الدين بن المنير فى كتابه،إلى الاشادة بفضله وعدله ، وعرف القبارى عنه ذلك ، وقالوا له عنه : « هذا هو الصـاحب الصـالح » ، ـ والصاحب كما نعلم هوالوزير المقرب إلى السلطان ـ فقال الشيخ القبارى :

« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »

وقيل إنه طلب منه أن يأذن له بالاستماع إلى نصيحة منه فقال له:

« اقرأ سورة اقرأ باسم ربك » فقرأها الوزير الصاحب هو ومن كان معه ، حتى وصلوا إلى قوله تعالى (ألم يعلم بأن الله يرى) فقال له القبارى:

«أتعلم أن الله يراك ؟ » فقال له : نعم

قال الشيخ القبارى : «من علم أن الله يراه فحقه أن يخشاه»

وعرف الوزير بهاء الدين للقبارى قدره ، فاقترح ألا يحـــرم الناس من

مجالسته ، ورؤيته، فإنه لايصلح من لا يرى مفلحا .

ويعلق ابن المنير على ذلك مؤيدا الوزير فى اقتراحه فيقول :

« والصواب مع الصاحب ، وذلك أن الأمر المذكور يحقق أن لمجرد الرؤية أثرا غير محقور ».

واستجاب القبارى راضيا لهذه الرغبة ، فصار بعد ذلك يفتح الطاقة ، وينظر فيها إلى الناس ليراهم ويروه ، وظل على ذلك إلى قبل وفاته بساعة واحدة ؛ وكان الوزير قد غادر الإسكندرية ثم عاد إليها، فوجد الشيخ القبارى قد توفاه الله، فأسف عليه أشد الأسف وقال :

«كنت عزمت فى حياته ألا أدخل البلد حتى أتيمن برؤية وجهه، وقد عزمت الآن بعد وفاته ألا أدخلها حتى أتيمن بزيارة قبره وروحانيته»

وكذلك فعل هذا الوزير مابقى من حياته إلى حين وفاته.

ماأهمله ابن المنير :

ولعل القارىء الكريم قد فطن إلى أن ما كتبه ابن المنير ، بشأن الوزير الصاحب فى كتابه عن القبارى أو ما لخصه ابن حزه السكندرى ، لا يمكن أن تكتمل به صورة واضحة عن معالم شخصيته، ولولا ماذكرناه هنا بعد الرجوع إلى مصادر التاريخ العام عن هذه الفترة ولاسيما كتاب «مفرج الكروب» لابن واصل، مااستطعنا أن نقف على أحداث هذه الفترة الهامة من تاريخ الإسكندرية، مماله صلة قوية بالسنين الأخيرة من حياة القبارى.

ومما يجدر بنا أن نلاحظه أيضا أن ابن المنير لم يكتب شيئا ذا بال عن هذه الفترة ، بدليل أنه لم يذكر لنا شيئا عن صلات الظاهر بيبرس بالقبارى، وبالتالى بالإسكندرية ، مع مالهذا الأمر من أهمية بالغة من حيث اعتكاف القبارى ، وزهده فى مقابلة السلاطين والوزراء الذين كانوا يسعون إليه ، ولا يسعى هو

إليهم، ويطلبون منه النصيحة وهو يطلب منهم تقوى الله والرفق بالناس والوطن، ويبعثون إليه بالعطاء فيرده إليهم، ويتوسط لديهم بالشفاعة الحسنة فيمن يستحقها، كل ذلك وهو المؤمن المتواضع، لا يباهى بكرامة ولى أو شريف.

ومن الحقائق التى يجب أن نتعرف عليها عند القبارى أن قدراً كبيراً من مظاهر سلوكه الحميد مع الناس، إنما يرجع إلى تجاربه معهم من جهة، وإلى ما بلغه من علم واسع بأمور الدين الحنيف، وبهذا يكون قد تعلم من التجارب، وعزز ذلك بتعاليم الإسلام، وهى نابعة من شهادة النبى عليه السلام: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق».

النكتة اللاذعة:

وكان القبارى إزاء ذلك صارماً مع نفسه لا يتراخى فى الحق، ولا يجد مبرراً للتحلل من المبادىء السامية، ثقة منه بأنها أقوى من خلاصة التجربة، وحصيلة الفكر المجرد: زاره يوما أحد الوزراء فى البستان، وكانت الساقية فى هذه الساعة تدار بالدواب، إذ كان يستخدم الحمير فى تدويرها، والبغال طبعا أقوى وأنهض، فعرض الوزير على الشيخ أن يدير الساقية ببغلته التى قدم عليها، بدلا من الحمار، لتساعده على عمله، بقوتها التى تفوق بها قوة الحمير.

وكان الوزير يريد أن يبسط المجلس بهذه النكتة، فإذا بالقبارى يستجيب للنكتة هو الآخر، ويلقنه فى الوقت نفسه درسا قاسيا أمام الجالسين فيقول:

«ولا أنت ما أرى أن أدورك فى الساقية».

وانفرجت أسارير الشيخ فانبسط الوزير ومن حوله لذلك، مما شجعه على استمرار الحديث معه، وسرعان ما تغير وجه القبارى وتكهرب الجو فجأة على غير عادته مع جلسائه، إذ أمرهم بالانصراف على الفور، وتعجب الوزير كيف

يطرده ويطرد من معه من علية القوم، ولهم مكانتهم، وهم ضيوفه، فقال القبارى:
« لأن القعود معكم ضياع »

من خلال التجربة :

وعرف القاضى والدانى أن أحداً لا يستطيع الوصول إليه إلا بإذنه، واشتهر فى الناس أنه يترفع على الملوك ولا يخشى سطوتهم، وأنهم يحاولون أن يأذن لهم بالدخول عليه، فإذا شاء أذن، وإن لم يشأ لوى زائره عنان فرسه، ورجع من حيث جاء.

تلك هى عادة القبارى، العاكف عن زراعة بستانه، الغنى بالله عما فى أيدى السلاطين والملوك والأمراء، فكيف بالفقهاء والعلماء والجيران؟

كان القبارى يأنس بالزائر الفقير المتواضع والعالم الفقيه المتجاوب، وكان يحب جاره ويحرص على شعوره، ولا يجرح كرامته ويعطيه مما أعطاه الله، ويتحمل أذاه، إذا أساء اليه، حفاظا على حق الجوار.

ن ذلك أن أحد الفقهاء المعروفين فى زمانه قدم الإسكندرية لمقابلة القبارى، وقد حدثه وجدانه بها فى نفس الرجل.

وتصادف أن مر أحد الجيران بالقبارى، وهو يربط الحزام على وسطه، ويصعد نخلة صغيرة من نخيل البستان، فأخذ الجار يمزح مع القبارى، فقال: لم تعد تقوى على صغار النخيل وقصارها، ألا صعدت تلك النخلة العالية؟ وأشار إليها، «فقال القبارى - أو على حد تعبيره - «فأنطقنى الله بأن قلت»:

« ما أعجز عن العالى إن شاء الله تعالى، ولكن العالى كله خطر، يخاف عليه وعلى ثمره، وعلى من يتعلق به، أرأيت إذا هبت العواصف، أى النوعين ينقصف: النخيل العالى أم الواطى؟ وإذا اشتد الماء ثنى ثماراً أيهما؟ وإذا وقع

الطلاع من فوق أحدهما فى أيهما يقع ؟ فالعالى كله خطر ، وغيره تغلب فيه السلامة ، ومع ذلك فإنى لا أعجز عنه والحمد لله » .

ونزل القبارى من فوق النخلة القصيرة ، وصعد إلى العالية ثم نزل يقول :

« وكانت إشارتى بالقصف إلى الخاتمة لأنها الأصل ، وبالثمر إلى العمل لأن الكبر يفسده ، وبالطلاع إلى المتعلق به ، فإن صحبة العلية من الناس خطر » .

وجرى هذا الحوار بين القبارى وجاره ، ورسول الفقيه يسمع ، فعاد إلى صاحبه يحكى له ما رأى وما سمع ، وأدرك أنه لن يقوى على الجدال معه .

قال القبارى :

« فأمسك عنى ، فلعل ذلك خير لى وله »

قايتباى والقبارى :

وكان للقبارى شأن عظيم عند الملوك ، حتى بعد أن توفاه الله ، وقد ذكر ابن المنير أن الشيخ محمد على بن علان المكى ، فى كتابه « الوجه الصحيح فى ختم الصحيح » ـ أى صحيح البخارى ـ قد سجل القصة الآتية :ـ

عندما حج السلطان قايتباى إلى بيت الله الحرام ، وزار الحضرة الشريفة، سأل خدام الحرم النبوى عن أعجب ما رأوه، فقالوا : إن رجلا يأتى قبرالنبى كل يوم ، فينفتح له ، ثم يغيب مدة ثم يظهر ، ومضى على ذلك وقت طويل ، حتى إذا جاء على عادته من كل ليلة سمعوا أصواتا وجلبة ، فاستعدوا بعصيهم إزاء القبر الشريف ، خشية من أن يصيبه مكروه ، وإذا بالرجل يخرج ، فأمسكوا به وشددوا عليه ، وسألوه عن أمره ، فقال لهم إنه يأتى كل ليلة ليقرأ صحيح

البخـارى على النبى عليه السلام ، وسألوه عن هذه الأصوات، فقـال لهم إنهـا أصوات خاصة الله الكرام ، حضروا لختم البخارى والتبرك بالنبى عليه السلام ، وسألوه عن اسمه وبلده ، فقال : أبو القاسم القبارى من الإسكندرية ، فتركوه وشأنه ، وإذ علم قايتباى بهذه القصة وصاحبها ، سأل من غير شك ، عن قبر القبارى بالإسكندرية ومناقبه وزاره ، وقرأ له الفاتحة ، ولم يشذ السلطان قايتباى عن الملوك الذين عرفوا من قبله للقبارى قدره ، ومانصحهم به من تعمير حصون الإسكندرية وتجديد أسوارها فسار على نهجهم، وبنى وجدد وشيد كما فعلوا، وهذه قلعة قايتباى لا تزال قائمة حتى اليوم على أنقاض منار الإسكندرية القديم ، تحمل اسم هذا الملك الذى كانت له عناية خاصة بالإسكندرية فزارها عـــدة مرات ، وليس هنـا موضع سرد هذه الزيارات، إذ أنها تخرج بنـا عن الموضوع ، فقـد مات القبارى ، ولم يدرك عصر قايتباى ، ولم يتم بينهما لقاء ، اللهم إلا ماسمعه عنه من خدام الحرم النبوى بالمدينة المنورة .

ومن هـذا كله يتبين لنـا أن القبارى الزاهد العـابد ، لم يكن ليسعى إلى أبواب الملوك والسلاطين والولاة، لاعن كراهية أو بغض أو تمرد، ولاعن تظاهر بالورع ، وإنما كان القبـارى مثلا حيـا للمرونة عند العالم بالنسبة للحـاكم، فلم يـكن يرفـض زيارة الحاكم لمجرد الرفض ، ولم يـكن يقبـل زيارته أملا فى عطـاء منه ، وإنما محور القبول والرفض يدور حول فـكرة هامة ملـكت على القبارى أقطار نفسه ، هى :

هل الحاكم على استعداد لقبول النصيحة والإسراع بالعمل بها ؟ ، فإذا كان الجواب نعم ، فأهلا به وسهلا ، ولو أدى ذلك إلى أن يتنـازل القبارى عن

عادته فيذهب إليه بنفسه ، أما إذا كان الجواب : لا ، فلا داعى لأن يحضر عنده ، ولا لأن يذهب إليه القبارى .

وهنا يكون القبارى قد برىء بذمته منه ، وأجر كل منهما على الله ، وقد رأينا كيف امتنع عن الإذن لبعضهم بالحضور ، وكيف أذن للبعض الآخر ، وكيف اشترط على بيبرس أن يلقاه من أسفل البستان ، بعد أن بعث وزيره الصاحب ، لكى يمهد له تلك الزيارة التى خلدها التاريخ .

- ٧ -

في الميزان

القبارى ... ومكانته العلمية ؟

لم يكن القبارى عالما من العلماء الذين يجلسون للدرس فى مدرسة أو جامع ، فما قال أحد عنه إنه كان فقيها أو محدثا أو متصوفا أو شاعرا أو خطيبا أو قاضيا أو مفسرا إلى آخر هذه الأوصاف التى يندرج تحت إحداها أو بعضها أصحاب المكانة العلمية فى التراث الإسلامى ، كما أن الرجل لم يترك لنا كتابا أو شرحا أو تعليقا تناقله الناس فيما بينهم ، فمن أين لنا إذن التحدث عن مكانته العلمية فى سجل الخالدين وأصحاب القمم العالية؟

غير متفرغ :

ومع هذا فقد غلبت شهرة القبارى على كثيرين وكثيرين ، بوصفه صاحب بستان فى الإسكندرية ، يعمل فيه بيده ، ويعيش منه ، ويطعم الناس ، ومن أرجاء هذا البستان ، فاحت السيرة العطرة لصاحبه ، لانقطاعه فيه للعبادة الصحيحة ، ولإرشاد كل من يقصده إلى ينابيع الخير والحكمة ، وقد استوى عنده جاره وخادمه وضيفه والسلطان والأمير والجندى والقاضى والفقيه .

لم يكن القبارى متفرغا للتعليم أو التأليف ، كما هو شأن أصحاب المدارس الإسلامية فى عصره بل وفى بلده كالطرطوشى والسلفى وابن الحاجب وسند بن عنان وابن المنير وغيرهم ، وإنما كان رجلا من سائر الخلق ، يسعى على نفسه من

وجوه الحلال المباح ، حريصا كل الحرص على ألا يخالط مأكله أو مشربه شىء من الحرام .

ولم يكن القبارى ممن له رحلة إلى المشرق أو المغرب فى سبيل التحصيل أو التدريس، ولا ممن لهم (معجم شيوخ) كغيره من العلماء الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، فأجازوا لمن قصدوهم بأنفسهم أو بالمراسلة .

وإنما عنى المؤرخون بذكر القبارى من وجهين . أولاهما : ذكر المشهورين فى ختام كل سنة من سنى الهجرة فى عهد الملك أو السلطان المؤرخ له ، والوجه الآخر ذكره فى عداد الطبقات العلمية من محدثين وفقهاء ومفسرين ونحاة وشعراء .

وبالبحث عن القبارى فى قوائم طبقات أصحاب المعرفة ، نرى السيوطى قد وضعه فى طليعة طبقة (الزهاد) ، وترجم له ترجمة مختصرة وأشار إلى الترجمة التى خصه بها ناصر الدين بن المنير، وعلى ذلك يكون القبارى معـــدوداً فى سلك الزاهدين ، ترى هل كان زهد القبارى شيئا آخر غير الزهد عند غيره ؟

الزهد الايجابى :

وفى الحقيقة أن القبارى كما رأينا فى حكاياته ونوادره ، قد انفرد بنوع من الزهد لا مثيل له فيما نعلم عمن كان قبله ومن جاء بعده على السواء ، نـــوع من الزهد يمكن أن نطلق عليه اسم (الزهد الإيجابى) .

ذلك أنه قد التزم فى معيشته أسلوبا خاصا ، لم يتخلف عنه منذ البداية حتى النهاية ، ودون استثناء ولو مرة واحدة ، وليس معنى ذلك أن الرجل كان مثل الفيلسوف الألمانى (كانط) ميكانيكا آليا فى تصرفاته ، يخرج إلى الشارع فيضبط الناس ساعاتهم على الرابعة مساء ، وإنما كان يعدل فى سلوكه الخاص مع الناس متى اقتنع بوجهة نظر ناصح مخلص أمين ، دون مساس بجوهر العقيدة أو

الفرائض والسنن التى لا مناص من اتباعها ، وإلا حقت عليه العقوبة ، وكان بمخالفتها محروما من المثوبة .

والمتصوفة كثيرون كما نعلم ، والزهاد والفلاسفة كذلك ، ولكل منهم مشخصاته ومميزاته عن غيره ، ومظاهر اقترابه أو ابتعاده عن هؤلاء وهؤلاء ، ولكن القبارى انفرد بزهد عملى ، من أبرز سماته الاعتدال من غير إفراط أو تفريط ، إذ أخذ على عاتقه منذ الصبا أن يخلو إلى نفسه ، فيعبد الله على خير وجه ، واضعا نصب عينيه كتاب الله وسنة رسوله ، وضميره وحده هو الرقيب عليه فى كل ما يأخذ ويدع .

وهذا الزهد كما رأينا لم يكن عن حرمان ، بل كان طابعه الغالب عليه هو الغنى بما رزق الله عمن خلق الله ، ومن غير تظاهر بالورع أو الاتجار به ، إنه زهد ظاهره وباطنه واحد ، لا عن مرض أو من أجل غرض ، من أجل هذا حق لليافعى (- ٧٦٤ هـ) فى «مرآة الجنان» أن يقول «كان صالحا قانتا مخلصا مع الزهد والورع البالغ » .

فى سبيل السعادة :

إنه يستهدف بهذا الزهد فى الدنيا أن يكون سعيداً فى الدنيا ، ومرضيا عنه من الله فى الآخرة ، وفى كل لحظة من يقظته ونومه ، وفى كل مكان بما حوله دائما وأبداً ، تطل عليه وتوقظ ضميره كلمة واحدة هى (طلب الحلال) ، وفى شريعة الإسلام : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما متشابهات »

حرص القبارى على أن يتجنب هذه المتشابهات ، ليضمن القبول عند الله ، ولا مناص إذن من التحرى فى كل شىء ، والتحرز فى كل حال ، والحرص عند كل أمر ، قولا أو فعلا ، أكلا أو شربا ، عبادة أم معاملة ، سرا وجهرا ، نية وعملا .

من أجل هذه الغاية النبيلة التى اقتضاها الشرع الصحيح ، ومن أجل توكيد مطلوب الآية الكريمة (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) ، دار الحوار بين القبارى وبين نفسه :

ماهو الضمان لمعرفة الحلال ؟

الضمان هو البحث والتقصى فى علوم الدين ، وقد عكف عليها صاحبنا من الصغر ، منذ جلس إلى المدرس ، ومنذ توارث أبوه وأمه عن الإسلام أمتن الطباع وأسلم الأخلاق ، وأخذ يداوم ويقرأ ويطالع ويناقش ، لا يكتفى بالنظرة الخاطفة ، والرأى المتعجل ، بل يتعمق فيما جاء بأصول الدين الحنيف وشروح المفسرين ، وآراء أصحاب المذاهب ، وبعد هذا كله ، كان يصغى إلى الحديث الشريف وهو يدوى فى أعماقه :

(استفت قلبك ولو أفتاك العلماء) .

ومع ذلك جمع القبارى بين صوت القلب الصافى وبين النص : بين المعقول والمنقول ، وإن كان فى أغلب أحواله ينطق بما يجريه الله على لسانه ، بما ليس له يد فيه ، فكان يقول « فأنطقنى الله بأن قلت » .

كان القبارى إذن رجلا من أسوياء الناس ، لم يعتزلهم ولم يعتكف فى صومعته ، أو كان من الذين يكرهون مخالطة المجتمع ، لسبب أو لآخر ، ولكنه اندمج فيه بكل حواسه ومشاعره ، ولم ينفصل عنه ، ولا كان من سكان الأبراج العاجية ، ولكنه مع ذلك كان رجلا ملهما ، يتلقى من الله نور اليقين .

زهد صميم :

حقا لم يكن القبارى من الذين يحيطون أنفسهم بالأساطير والخرافات ، ولم يكن ممن يتخذون السحر وسيلة إلى الشعوذة والدجل ، وادعاء الولاية والقطبانية ، ولم يلبس المرقعة ولا العمامة الخضراء أو الحمراء ، ولم يضع على رأسه طاقية الإخفاء

ولم يعبر البحر أو النيل أو خليج الإسكندرية فوق الماء في لمح البصر ، ولم يفتح باب بستانه لطلاب الشفاء على يديه المباركتين من مرض البرص أو أعطى حجابا أو نفث فى عقدة ، لا هذا ولا غيره كان شأن القبارى ، كانوا يأخذون منه حبات الفول يضعونها فى أمتعتهم للبركة ، فامتنع نهائيا عن زراعة الفول، واستعاض عنه بالشعير خوفا من الفتنة .

إنه إذن الرجل المتواضع لربه وللناس، يأكل ويشرب ويمشى فى الأسواق، ويركب الدابة ، ويصعد النخلة ، ويلتقى بالناس ويستمع إلى العالم ، وينصح الحاكم، ويحب الأطفال ، كل ذلك عن خبرة وإيمان فى آن واحد : خبرة بالحياة التى لم يسقط حتها من حسابه ، وإيمان بالله صاحب الشرع الذى حوله يدور محور إثراء الحياة بالقوة والعظمة .

والمسألة هى إذن : مبادىء سليمة ، ثم التزام دقيق بتعاليمها .

هكذا يمكن تلخيص محصلة الزهد عند القبارى : فالرجل لم يكن من أهل الفلسفة ، ومع ذلك نقول: إنه بحق كان صاحب فلسفة ، فلسفة أخلاق عملية سلوكية بسيطة ، معقولة ومقبولة، لا ترفضها الفطرة ولا تخالفها ولا تتحرج معها الغرائز، ولا تتنافى مع مطالب الحياة الإنسانية، فى مختلف مستوياتها ودرجاتها.

لقد قرأ القبارى كثيرا ، وحفظ كثيرا ، وكان فهمه وهضمه أكثر وأكثر ، فقد استحال علمه العميق إلى عمل واسع ، فكان بذلك لغيره مثلا يحتذى ، ونمطا مرغوبا فيه ، ولم يحد عن الجادة ، ولم تحسب عليه هفوة ، وهو ليس بنبى معصوم، ولكنه أولا وأخيرا لم يكن كالعامة، يعبدون الله على حرف، ولكنه التزم أشد الالتزام بقول النبى عليه السلام :

« إن الرجل لا يكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ، ويكون لسانه

مع قلبه سواء ، ولا يخالف قوله عمله ، ويأمن جاره بوائقه » .

وهذا من غير شك أسمى دستور علمى وعملى للسلوك الإنسانى ، بالنسبة للنفس والجماعة ، ولا بد أن القبـارى ـ الذى استوعب البخارى وكتب الصحاح من الأحاديث ـ قد ارتاح إلى هذا الدستور ، ونهج على منواله .

أصالة المذهب :

للقبارى إذن فلسفة أخلاقية انفرد بها ، لم يسبقه إليها فيلسوف فيما نعلم من فلاسفة المسلمين : النظريون منهم والأخلاقيون ، نعم لقد سبقه الإمام الطرطوشى عالم الإسكندرية الذى توفى قبله بنحو قرن ونصف قرن من الزمان ، وكان مثله زاهدا وآمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، وله مواقفه المعروفة إزاء الحاكم ، وخصه الله بإجابة الدعاء ، وكتب (سراج الملوك) لإرشادهم وتبصيرهم ، وربما وقف القبارى على ذلك كله ، وربما وقف على سيرة الطرطوشى وأمثاله من ذوى المكانة من أعلام الإسكندرية وغيرها ، ولكن القبـارى سيظل مع ذلك أمة وحده ، وعلما مفردا فى تاريخ الإنسانيـة عاش كالقديسين ، هداة للخير ودعاة للحق ، رافع الرأس ، موفور الكرامة ، اشتركت عوامل الوراثة الأسرية ، والبيئة المحيطة ، والظروف الخاصة مع العقيدة ، فى صقل حياته ، واكتمال شخصيته ، عن دراسة وممارسة .

كان إذن لكل من كتب عنه الحق فى الاعتراف بفضله ، والإشادة بذكره ، ولم لا وقد تتلمذ عليه عالم فذ كناصر الدين بن المنير ، وهو من علمنا سعة علم ، وغزارة فضل ، وأصالة محتد ، وكلما جرى ذكره قال عنه (الأستاذ) ، وكذلك حضر عليه وعرفه سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام المفتى الفقيـه الجرىء ، والمجاهد فى سبيل الله بقلمه وسيفه ، واحتفل بذكره المؤرخون أيما احتفال

وكان فيلسوفا

ويبقى بعد ذلك سؤال له أهميته وهو :

هل يمكن أن نعتبر القبارى فيلسوفا؟

نحن نعلم أن أبرز سمات الفيلسوف أن يكون لأفكاره (نظام Système) ، تدور حوله هذه الأفكار، فى كافة مجالاته الميتافيزيقية والأخلاقية،كما هو معروف عند اليونان القدامى مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، وعند المسلمين كالفارابى والغزالى وابن سينا وابن رشد وعند المحدثين مثل ديكارت وكانط وهوبز وهيوم.

أما القبارى فينطبق على تراثه ـ بالرغم من قلته ـ هذا النظام المتسلسل،سواء فى أفكاره الأخلاقية العملية ، أو فى أفكاره وآرائه الحرة المتميزة بالأصالة والطرافة ، وفضلا عن هذا وذاك ، نلاحظ أن القبارى كان أحيانا يتفتق ذهنه بالكلمة الحكيمة ، يطلقها فتستقر فى وجدان جليسه ، ويكون لها نصيبها من الخلود عن طريق التبادل والتواتر والإعجاب والتقدير .

وكان أحيانا أخرى صاحب منهج ممتاز فى التعاليم ، وإن لم يعرف عنه أنه قد جلس فى جامع أو مدرسة ، وإنما كان يلتقى بالناس فى الأسواق ، أو يلتقون به فى بستانه ولا يتجاوزون أصابع اليد ، فيتبادلون معه الحديث من أى وجه كان هذا الحديث ، جريا على عادة أى إنسان يلتقى بإنسان آخر ، فيتولد من هذه المناسبة أو تلك حوار طريف، أشبه بحوار سقراط فيلسوف اليونان، لاينتهى إلا بالكلمة الحكيمة، التى من شأنها إضافة شىء جديد إلى التراث الثقافى الإنسانى، لإحقاق حق ، أو إشاعة خير ، إنه إذن فيلسوف .

هذا ومما يؤكد أن القبارى كان فيلسوفا أنه لم يترك شاذة ولا فاذة إلا وعنى بالبحث عن الأسباب ، وحاول بالتأمل العميق الوصول إلى الحكمة الكامنة وراءها ، فما من عمل ينطوى تحت عبادة من العبادات أو معاملة من المعاملات

إلا وحاول الكشف عن العلة ـ وما زال يجد ويجتهد بعقله حتى يلهمه الله تعالى القول الصحيح ، وهذا شأن الفلاسفة، والله تعالى يقول:

« واتقوا الله ويعلمكم الله » والعلم بذلك عنده يجمع بين (اللدنى) أى الذى يأتيه من لدن الله عز وجل ، وبين (المكسوب) أى الذى بإعمال التفكير يحصله المتعلم ، وكما يقولون «العلم بالتعلم».

لماذا هو فيلسوف ؟

ترى ماهى آراء القبارى التى من أجلها نستطيع أن نسلكه فى عداد الفلاسفة؟

كان القبارى يتخذ من تجاربه فى الحياة مصدراً لأفكاره وأعماله ، التى كان يحرص على الالتزام بها، أى أنه لم يتخذ من الحياة المجردة أساسا للسلوك ، وليس أدل على ذلك من قوله : « مافعلت شيئا من ذلك إلا بعد تجربة ووقائع اقتضته»

وكان هذا القرار بمناسبة جرت له، فأصر بعدها على ألا يكلم واقفا ولا راكبا، حفاظا منه على العزة التى هى من لوازم الإيمان .

والورع عند القبارى له وضع خاص ، كما أنه يرتبط بمصطلح عنده هو «الحلال المحض » ، وكان الناس يصفونه بالورع ، فينكر عليهم ذلك أشد الإنكار ، ويرى أنه لا يمكن الوصول إلى حقيقة الورع ، ويقول:

« الورع الذى يشيرون إليه أن يترك الإنسان الحلال المحض تقلداً ، وأين الحلال ؟ علم الله أنى ما وجدته كما أشتهى قط ، الحلال المحض هو الذى لا تراه ولا تسمع به، فهل تجدون أكثر من أن أمد يدى إلى البحر آخذ حوتا بلا آلة فيها الشبهة، ومع ذلك فنفسى بذلك طيبة لأن القوة التى بسطت بها يدى إنما نشأت من هذه الأقوات وهى مشتبهة: يشبع الإنسان مما يأكل ،أين الورع؟ إنما هو تخفيف، وأما التنظيف فما إليه سبيل ، فإن كان الأمر بهذه المثابة فما بقى للخلاص طريق إلا الاقتصار على سد الجوعة ، وستر العورة » .

وقد رأينا فيما مضى أمثلة من ورعه ، فكان يرى الانتفاع بظل أشجار الجار حراما ، والجلوس إلى ظل دار المدين حراما ، والجلوس إلى المراكب على ساحل البحر حراما ، والشرب من ماء الخليج حراما ، وهكذا كان يتورع من أية شبهة ولو كانت تافهة ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعرض الأسباب والدوافع على أساس من التفهم الكامل للدين ، وتطبيقاته المباشرة على أمور الحياة .

ومن هذا نرى أن الرجل كان يفلسف السلوك ، ويتعمق فى إتيانه أو تركه ، على أساس عقلى أو سند شرعى ، حتى لقد كان يتحاشى الشبهة ، ليصفو له العيش فيحصل على (الحلال المحض) ، وهو فى نظره أندر من الكبريت الأحمر ، فإذا تخلص من آلة الصيد ، حتى لا يكون فيها شبهة ، ومد يده إلى البحر ليصطاد سمكة ليأكلها ، فإن القدرة المتولدة فى هذه اليد عن الغذاء لا تخلو بعد ذلك من الشبهة ، لأن الغذاء نفسه لا يخلو هو الآخر من الشبهة ، ولو كان هذا هو الحال فى كل شىء ، فإن الحلال المحض لا وجود له فى الحياة ، مما يترتب عليه أن يقتصر الإنسان فى معاشه على الكفاف فى المأكل والمشرب والملبس ، وهذا هو (التخفيف) ، مادام لا يستطيع (التنظيف) وإذن لا مناص مطلقا من الشبهة ظنا أو يقينا ، وفى كلتا الحالتين يلزم التحرى فهو السبيل الأمين الموصل إلى الورع المنشود .

العمل شرف :

وللقبارى نظرية طريفة فى (العمل) ، ترتبط أساسا بخطه الفلسفى العام ، وهو طلب اليقين فى كل شىء ، والبعد عن الظن فى كل شىء : يرى القبارى أن كل شىء يستطيع الإنسان أن يقوم به بنفسه ، أولى وأحق من أن يستأجر له غيره ، أى أنه ينبغى أن يباشر أموره بنفسه فلا يستنيب عنه فى عمله أحداً سواه . لماذا؟ يقول :

« المباشرة يقين ، والاستنابة ظن ، واليقين أحب إلىّ من الظن » .

ومعنى ذلك أنه عندما يؤدى عملا بنفسه ، يكون على يقين من نفسه ، ومن ثمرة جهوده ، أما إذا استأجر أحداً أو كلف أحداً على نحو من الأنحاء فلن يسلم من الظن ، فقد لا يكون عادلا فى اختيار الشخص ، وقد يكون قد ظلمه فى حقه، وقد ... وقد ... وهذه كلها ظنون ، وجدير بالمرء أن يتخلص من الظنون جميعا، والله تعالى يقول « إن بعض الظن إثم » .

ولعل القبارى كان واقعا فى هذه الفلسفة تحت تأثير الحديث النبوى الشريف إذ اشترط النبي عليه السلام على أبي ذر الغفارى - وهو يبايعه - ألا يسأل الناس شيئا وقال :

« ولا سوطك إن سقط منك ، حتى تنزل فتأخذه » فكان خطام الناقة يسقط من يد أبي بكر الصديق ، فيضرب بذراع ناقته فينيخها ليأخذه ، فيقولون له : أفلا أمرتنا فنناولكه ! . فيقول لهم : إن حبي صلى الله عليه وسلم أمرنى ألا أسأل الناس شيئا » .

وكذلك كان الشيخ القبارى يعمل بيده ، ويخشى أن يعمل له أحـــد ، ولو بأجر ، فراراً من الشبهة ، واعتماداً على أن عمله لنفسه إنما هو الحلال ، والحلال أدعى إلى اليقين .

والعمل عند القبارى عبادة ، لأنه يعين على الدنيا ، فإذا استعـــان بالرزق الحلال ، واستغنى عما فى أيدى الناس ، استطاع أن يؤدى حق الله عليـــه فى طاعة أوامره واجتناب نواهيه .

العمل عنده جهاد ، وللمجاهد عند الله أجره ، العمل يباعد بين العامل وبين السخط على الله والنـــاس ، وأخيراً على نفسه ، وربما أدى الفراغ إلى عقـدة نفسية يعقبها الانتحار ، والانتحار كفر بالله ، وانفصام عن المجتمع .

السلامة فى اليقين :

ومهما يكن من أمر الظن، الحسن منه والسىء، فقد كان القبارى حريصا على التخلص منه، وذلك بعد تجربة حكاها عنه ابن المنير عندما دخل عليه أحدهم يوما وهو يكسر الفول، إبان حصاده، وحينما كان يفتح بابه على مصراعيه للداخلين، وقبل أن يتخذ قراراً بشأن كل واحد منهم حسب حاله، وكان يتحدث وهو يكسر الفول، فجلس ذلك الزائر بإزائه يحادثه، ثم عاد فجاء من أمامه، وظل القبارى واقفا خلفه ساعة، فقال له القبارى :

« تقدم بإزائى إن شئت الجلوس »... ففعل .

ترى هل ترك القبارى هذه الواقعة دون أن يطمئن صاحبه على السبب الذى حدا به إلى ذلك ؟ كلا، بل قال له :

« أتدرى لم قدمتك ؟ ». قال : لا . قال:

« جلست خلفى فعاملتك بحسن الظن فى ألا تأخذ لى شيئا، ثم وقع لى أن معاملتك بسلامة اليقين أحسن لى ولك، فإذا كنت بمرأى منى، استرحت من الظن سيئا أو حسنا »

وكما يقول ابن المنير : « كان شديد الحذر من أن يقع فى مظنة اتفاقا، وأما العمد فما أراه وقع له ذلك قط » .

وكما كان القبارى يتحرى الحلال، ليسلم من الوقوع فى الحرام، كان يتحرى كذلك اليقين، كيلا يقع تحت طائلة الظن، وحكاياته ونوادره شاهدة على ذلك، حتى لقد كان يحسن الظن بمن حول البستان ـ وهو الواقع فى منطقة مقفرة مهجورة تحيط بها الجبال والكهوف ـ وسئل : كيف يأنس وحده منفرداً فى هذا الخط، وفى هذا القصر، فقال : « الظاهر أن جيراننا من الجن مؤمنون ».

العصمة لله وحده :

وقد رأينا كيف هيأ الله لجيرانه امرأة فتحت لهم القصر الذى كان يسكنه ، وقد طال طرقهم على البـاب عندما تخوفوا عليه السوء ، لما غاب عنهم مدة ، فقلقوا عليه ، وقالت لهم إن الشيخ ضعيف ، ولمـا عادحكوا له ما جرى، فخشى أن يكونوا قد عرفوا أنه يأوى امرأة فى بيته ، وهم لايعلمون إلا أنه أعـزب ، فمن أين جاءت هذه المرأة ؟

لم يلبث القبارى أن أخذهم من أيديهم ، وطاف بهم البيت قطعة قطعة ، ليتأكدوا من أنه ليس هناك امرأة مطلقا فى حياته . وحتى لا يوقعهم على الظن بنوعيه - وفى هذا الخـــير له ولهم - قال لهم : وقع لى حينئذ أنها جارة مؤمنة من الجن ، أشفقت على الباب أن ينكسر من دق الجندى ، فصرفته عنى بعذر ، لأنى لاأسمع ، ولو تركته لكسره .

يقول ابن المنير معلقا على هذا الحادث « فانظر إلى حسن تحذره على عرضه (أى اعتذاره وحرصه عليـه) وعلى أديان الخلق من الوقوع فى الظن ومجاهدة النفس حتى يحسن الظن » .

وكان يحب الأطفال ويأنس بهم ويأنسون به ، حين يدخلون عليه البستان ، أما إذا بلغ أحدهم سن البلوغ فكان يمنعه من الدخول عليه اتقاء الفتنة والمظنة ، وهو الرجل التقى الحريص على سمعته ، وعلى أن يكون قدوة لغيره فى كل شىء ، ولو كان من المحال أن يظن فيه أحد ظن السوء .

حدث مرة أن خرج إلى الخلاء غربى الإسكندرية، عند المكان الذى فيه الدير القديم ، وكان يصحبه رجل ، وبينما هو فى الطريق أدركه فتى جميل الطلعة من أبناء

ذوى الثراء، فألقى السلام على القبارى ، فرد عليه التحية ، وسأل الرجل عن هذا الفتى ، فقيل له إنه ابن فلان ، فتوقف القبارى ، ولم يمض فى طريقه بدابته ، وقال للرجل : ما اعتدت أن يصحبنى حدث .

ولكن الطريق مقفر وليس به أحد ، فكيف يترك الفتى وحده عرضة لأى خطر يدهمه ؟ وهل فى سبيل دفع الظنون عنه ، يترك الصبى وشأنه فى هذا الخلاء ؟

ما أسرع ما تفتق ذهن القبارى عن الحل :

سار الفتى فى طريقه ، والقبارى بإزائه ، إلى أن لحق به جماعة يعرفهم ، ممن كانوا يترددون عليه فى البستان ، فقال لهم : خذوا هذا صحبتكم ، ولم يكتف بهذا بل شرح لهم الأمر مفصلا ، فقال : « إنه تبعنى ، فما أمكننى أن أصحبه ، ولا أمكننى أن أتركه يرجع وحده ؛ وقد لطف الله بحضوركم » .

ولما عاد القبارى إلى داره بعث إلى والد الفتى فحضر عنده ، ونصحه فقال :

« أنت موسع عليك ، ولك الخدم ، فلا يمش ولدك إلا ومعه خادمان »

حكى القبارى هذه القصة لناصر الدين بن المنير واتبعها بقوله :

« هذه عادتى ، وإياها التزمت ، وعين لا ترى قلب لا يحزن »

ولعل نظرية القبارى فى هذا الأمر كامنة فى تلك الحكمة التى قالها :

« من ادعى أنه معصوم ، فقد ادعى بما ليس له فى الغيب مكتوب » .

لهذا كان القبارى رحمه الله يدرأ الحدود بالشبهات ، ليسلم صدره من الظن ، ولو رجحت فيه كفة الحسن على السىء ، وهو يؤمن أشد الإيمان بأن الله تعالى قد هدد إبليس اللعين فقال له :

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان »

تصاريف القدر :

ولقد طالما شغل علماء الكلام من المسلمين فى مختلف العصور ، ومن بعد نزول القرآن الكريم ، بمسألة هامة هى : الإنسان مسير هو أم مخير ؟ وقد أدى ذلك الخلاف بينهم إلى حوار طويل عريض عميق ، انقسموا فيه إلى فرق كثيرة هى المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة والجماعة ، فمنهم من أجاب بالإثبات ، ومنهم من أجاب بالنفى ، ومنهم من اعتدل بين الطرفين ، وتعرضت العقيدة الإسلامية طويلا لتيارات وحزازات أدت إلى تكفير المؤمن وتبديع المتبع ، واغتيال المجتهد ، وأطلت الفتنة بقرنيها ، حتى جاء الإمام الغزالى فحاول أن يقتصر الكلام فى هذا على أضيق نطاق ، وفى حدود القلة القليلة من العلماء ، كيلا يفلت زمام العامة فتتقطع الأسباب ، وتجتاح العواصف العاتية شجرة المحبة بين الناس ، فوضع كتابا جعل عنوانه « إلجام العوام عن علم الكلام » كدليل على هذه المحاولة .

أما القبارى فقد عصمه الله تعالى من الجدل وأهله ، فلم يكن الوقت مناسبا ، ولا ثمت ما يدعو إلى الخصومة بين علماء عقلاء فى الإسكندرية ، صرفتهم الدعوة الإسلامية إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة عن المراء ، الذى نهى عنه الله والرسول أشد النهى .

ومع ذلك كان للقبارى من (العقل) و (تصاريف القدر) موقف هادىء ، يريح العقل والقلب جميعا ، يقول « يعتقد ابن آدم أنه يتصرف بالعقل ، إنما يتصرف بالقدر » ومضى فى إثبات صحة هذا الرأى اعتمادا على التجربة كما سبق أن قرر فيقول :

« ولقد شاهدت ذلك مرارا ، منها أنى كنت على رأس نخلة عالية ، فقدر الله أن قدمى زلتا ، ولم يبق إلا السقوط ، فما كان إلا أن التوى الحزام الذى أنا معلق به ، من غير إرادتى ، فتعلق بالكرانيف فتماسكت حتى عدت لهيئتى وتمكنت من الحزام ، فما قدمت شيئا على النزول ، فكان الذى فى ذهنى شىء واحد ، وهو أنه كان

عندى "فعلة" ، قد قاولتهم وهم فى العمل، فوقع لى حينئذ أننى لو مت لضاعت عليهم أجرتهم ، لما مضى من اليوم ، فما قدمت شيئا على أن أعطيتهم أجرتهم مستوفاة على النهار بكماله ، ونويت حينئذ أنى لا أستعمل أحدا فى عمل حتى أعجل له أجرته أولا » .

قال ابن المنير :

«واستمر على ذلك إلى أن لقى ربه »

وحكى النبارى من أمثال تلك النوادر ماأراد به أن يثبت أن الإنسان مسير وأنه غير مخير ، فى أى عمل يقوم به ، وإنما هى (تصاريف القدر) ، تغلب كل إرادة ، من ذلك أنه عندما حج ، وهو شاب وفاجأ ، الركب بعض أشرار الأعراب فى أرض الحجاز ، فسلبوا منه ماسلبوا ، ولحق ناقتـــه بدوى بسيفه فضربها ، ولكن الضربة لم تصبهـا ، فقد كانت توقفت عن صعود صخـــرة تلقت ضربة السيف دونها ، فنجا بقضاء الله وقدره ، وتيقن عندئذ من الحكمة المأثورة «نجيناك من التلف بالتلف ».

ومن تصاريف القدر معه أيضا أنه ذهب فى وقت السحر ، ومعه شبـــكة الصيد ، إلى الجانب الغربى من المدينـــة حيث لاعمران بالمرة ، وهو كالولهان العاشق مجذوب بقوة خفية ، فإذا به فجأة يفيق من غيبوبته ، فيرى الدير القديم خلفه بعيدا بعيدا وهو لا يشعر .

وكذلك حدث له يوما أن طرح شبكته فى الماء فأحس بقوة تمنعه ، وكأن جاذبا يدفعه إلى العودة فما يشعر إلا والوقت ظهر ، واثنان من الجيران واقفان على باب القصر الذى بالبستان ، وقد خشيا أن يكون قد جرى له مكروه ، وظنا أنه مريض بداخل القصر ، أو أنه قد مـات لطول غيـابه ، على غير عادته من الظهور ، فقال «هذا هو الجاذب فأراد الله صيانتى من هذه الـكاشفة »

اهمية العقل :

وليس يفهم مما سبق أن القباري يقول بتعطيل العقل ، بل العكس صحيح، فإنه يمجد العقل ، ويرفع من شأنه ، وليس أدل على ذلك من الحوار التالي الذي دار بينه وبين أحد زواره .

س: ماالسر في كون بني آدم لما خرجوا من ظهره كأنهم الذر ، وأخذ عليهم العهد وقال الله لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، بجملتهم ، فآمنوا ولم يجحد منهم أحد ، ثم لما تم خلقهم وأعطاهم النعم والعطايا الجمة وأسكنهم الدنيا انقسموا وافترقوا : فطائفة وحدت وطائفة جحدت ؟

جـ - خلقهم الله جل جلاله أولا ، وأعطاهم العقل ليس إلا ، وما يأتي من العقل إلا الخير ، فآمنوا حينئذ كلهم ، وخلقهم ثانيا في الدنيا ، وأعطاهم العقل ولكن سلط عليهم مع ذلك الدنيا والنفس والهوى والشيطان ، وهذه كلها أعداء للعقل . فمنهم من غلب عقله أعداء عقله فوحد ، فبقي على العهد ، ومنهم من غلب أعداء عقله عقله فجحد ، فالعقل في الأول وفي الآخر ، ماجاء منه إلا الخير ، ولكن في الأول كان منفرداً ، وفي الثاني مزاحماً مغلوبا ، فبحسب وجود المزاحمات وجدت الاختلافات والله أعلم .

ولقد جاء في الأثر « أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام العقل والدين والحياء ، فاختار العقل فقيل للدين والحياء ارتفعا ، قالا: لا . قال : أفعصيتما أمر ربكما ؟ قالا : ماعصينا أمر ربنا ، ولكن أمرنا أن نتبع العقل حيث كان » .

وسألت السيدة عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :

« بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا ؟ قال : بالعقل . قالت : وفي الآخرة ؟ قال : بالعقل . قالت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ فقال : ياعائشة ، وهل عملوا

إلا بقدر ما أعطاهم الله تعالى من العقل، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ماعملوا يجزون» .

وعلى ضوء ماجاء فى الأثر والحديث النبوى يتبين لنا إلى أى حد كان القبارى السكندرى بادا، المالكى مذهبا، معتدل العقيدة، مؤمنا بخير الأمور وهو الوسط العدل بين طرفين ، وكما رأيناه يجمع بين حرية الفرد ، وبين القدر المسلط عليه خيره وشره، أى يعتقد بأنه مخير ومسير فى آن واحد ، ولا عجب فقد سبقه إلى هذا التوفيق الإمام أبو المعالى الجوينى إمام الحرمين ، وضرب لنا مثلا بالسفينة عليها ركابها يسيرون فيها هنا وهناك كيف شاءوا ، فهم إلى هنا أحرار ، أى مخيرون ، يتصرفون بإرادة لهم مكتسبة ، ومع ذلك فإن السفينة كلها رهن الرياح والعواصف توجهها أنى تشاء ، وتتحكم فيها كيف تشاء ، ولا إرادة للركاب فى ذلك ، فهم هنا مسيرون لا مخيرون ، إنهم إذن فى هذه السفينة مسيرون ومخيرون معا.

هكذا جمع القبارى بين الفقه والتصوف، بين الحقيقة والشريعة بكل اتزان.

المحو والأثبات :

كذلك شغل فلاسفة المسلمين كثيرا بمسأله أخلاقية تدور أساسا حول قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت » ولم يخـــل كتاب لهم من مسألة (المحو والإثبات) هذه ، وليس من المصلحة أن نصرف القارىء إلى التفاصيل ، ولكن يكفى أن نشير إلى أن الشيخ القبارى قد أدلى بدلوه فى الدلاء ، على نحو واضح ، جلى قريب من العقل ، وبعيد عن المعميات والمحجبات فقال :

« مافى علم غيبه محو ولا إثبات ، ولكن المحو والإثبات فى الصحف» :

ويقصد بالصحف هنا على ما نعتقد (اللوح المحفوظ) ، وحرص القبارى بذلك على أن القضاء لا يتغير ولا يتبدل ، وأن العلم الإلهى كذلك ، فقد سبق فى علمه تعالى أن سيحدث كذا وكذا ، وليس معنى ذلك أنه سبحانه

أمر فلانا بارتكاب الجرائم التى لا يصح أن يأمر الله بها، وإلا فهو ظالم، إذا حاسب مرتكب الجريمة عليها ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً و «المقدر ينفذ ولابد» كما يقول القبارى .

لقد شهد القاضى الفقيه السكندرى ناصر الدين بن المنير بأن القبارى كان (يجمع بين الحقيقة والشريعة) ، ونحن نقول بذلك معه ، ونزيد بأن القبارى كان فيلسوفا، له فلسفته الميتافيزيقية والنفسانية والأخلاقية والاجتماعية، إلى جانب أنه كان زاهداً لا متصوفا ، وعابداً لا متقشفا ، ومعتدلا لا متطرفا ، ومتبعا للسنة لا مبتدعا للضلالة ، وكان من الذين جمعوا بين العقل والقلب ، وبين الظاهر والباطن ، وبين دواعى الدنيا ومطالب الآخرة ، شارك المجتمع ولم يعتزله ، وأسهم فى بنائه ، ولم يتخل عنه بالرأى الحر الصريح .

ومن أروع ما قاله القبارى ، «الوجه هو القلب الثانى ، قلّ أن يقوم بالقلب شىء إلا ظهر على الوجه أثره » .

وإذا قال الشاعر القديم :

ومهما يكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فإن التعبير بالقلب الثانى عن الوجه لم يسبق إليه أحد شعراً أو نثراً ، فضلا عما تتضمنه الحكمة من فراسة المؤمن الذى مارس الحياة ، وعرف الناس كل المعرفة .

الدنيا حلوة... لا شووة:

وقد تأكد لنا النظام الفلسفى الذى تميز به الشيخ القبارى عمن سواه ، بآرائه الصائبة التى جمعت بين الدنيا والآخرة ، فلا هو عازف عن الحياة ، طمعا فيما وراءها ، ولا هو مقبل عليها بشهواته ، غير راغب إلا فى الملذات الراهنة ، ولهذا يقول بكل اعتدال واتزان :

« لا تفرح بمقبل ولا تحزن على معرض ، فإن الإقبـال والإعراض من المقدر ، والمقدر ينفذ ، ولا بد ، فما هذا الفرح وما هذا الحزن؟»

ثم هو إذ يأخذ من الدنيا نصيبه ، على القدر الذى يقيم الأود ، ويباعد بين النفس ورغائبها التى لا حد لها، يرتفع بالغرائز إلى ما يليـق بالإنسان الكريم ، المؤمن بقول النبى عليه السلام :

« إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها »

ويقول الشاعر القديم ؟

إذا ما عـلا المرء رام العـلا

ويقنـع بالدون من كان دونا

وفى علم النفس أن الغرائز لا مفر من تحقيق إرادتها ، وأنه لا يمكن القضاء عليها، إلا أنه من الممكن تعديلها وإعلاؤها ، وذلك كلما جاهد المرء نفسه،وتطلع إلى معالى الأمور، ولن يتسنى له ذلك إلا بكبح جماحها، وصدها عن هواها ، إذ (الشهوة شقوة) فى رأى القبارى . يقول :

« أتعجب من الخلق لا يبلغون شهوة أبداً ، لأن شهواتهم فى الكثير والمليح، ولا كثير ولا مليح أبداً , لأنه لا كثير إلا وهناك أكثر منه ، ولا مليح إلا وهناك أملح منه ، فالشهوة بعد هذا هى الشقوة » .

بهذه النظرة ، ينتهى القبارى برأيه فى الشهوة التى لا تشبع أبداً ، طالما أنها ترى كل يوم ما هو فوق ما حصلت عليه من اللذة الطارئة ، وهنا يبلغ القبارى أقصى درجات الزهد فى الدنيا، ولا عجب فقد حرمه الله تعالى لحكمة له سبحانه من السمع والشم والذوق ، وربما الغريزة الجنسيـة أيضا، إذ عاش ومات ولـم يتزوج قط كما رأينا ، فهو يصدر فى هذا عن تجربته الخاصة ، وإلا كان جـديرأ بالإنسان أن يقف فى مكانه لا يتحرك ولا يرغب فى شىء ، وهذا تعطيل للحياة .

وكان يقول أيضا ماشبهت طالب الدنيا إلا بالطفل الذى يروقه النوار ، يجمعه بلا فائدة ، وما يلحق يجمعه حتى يذبل وتزول زهوته ، هذه هى رتبة الأطفال ، وثم قوم أعلى منهم رتبة وأتم عند أنفسهم عقلا ، يغتبطون بزهرة الذهب والفضة وهم الأطفال فى الحقيقة ، والكل مثل نوارة الطفل » .

تلك هى الدنيا فى نظر القبارى : عرض زائل ، وطلابها صغار العقول ، قليلو الإدراك.

التوكل .. لا التواكل:

وليس غرض القبارى من راء هذه التشبيهات أن يقول للناس : ازهدوا فى الدنيا واعتزلوها بكل ما فيها ، وتواكلوا واقعدوا عن طلب العيش ، بل يقول صراحة عن الدنيا :

«هى دار أسباب ، ومن زعم أن التوكل ترك السبب بالكلية فهو غالط ..»

وقد التقى القبارى يوما بأحد رجال التصوف ، ودار بينهما حوار حول موضوع العمل فى الحياة ، والتماس السبب أيا كان نوعه من أجل المعيشة ، فقال المتصوف مفاخرا : نحن مانرى الأسباب ، فرد عليه القبارى؟

« ما صدقت فيما تقول ، فإنى أرى الأسباب ، ولكن لم أجعل اعتمادى على السبب » .

وبذلك برزت إحدى سمات الفلسفة القبارية ، وهى أن العمل مقدم على الترك والتوكل ، وإن كان العمل أو الحرفة ليس كل شىء فى الحياة ، بل هو مجرد سبب أى صلة بين الدنيا والآخرة. فرأيه فى هذا صريح ، إذ أن ترك الأسباب والاعتماد على الفتح غلط قبيح ، ويقول فى ذلك :

«من زعم أنه ترك السبب اعتمادا على الفتوح إنما هو النقل من سبب لطيف إلى سبب وسخ ، ـ وذلك أن الاحتراف بسبب شرعى لاعيب فيه ، لا فى الدنيا ولا فى

الدين . وبسط اليد للكدية (أى التسول) سبب مذموم وليته - أى المتسول - يبسط به للكدية خاصة، ولكنه يقول لهم :

أنا رجل صالح فأعطونى، ترى ماذا يبيعهم إن باعهم عملا ، فيبيع الدين بالدنيا كبيع الثمرة قبل بُدُوّ (ظهور) صلاحها، يخشى عليها جائحة الخاتمة، حيث يطالب بالثمن ، فيوجد مفلسا، فالحبس أولى به ، وما هنالك حبس إلا جهنم ».

لا رهبانية فى الاسلام

ولقد أعجب ناصر الدين بن المنير برأى أستاذه، فأيده بعبارة صريحة، واستشهد بقول أحدهم يوصى أصحابه بالتزام الاحتراف ، وينهاهم عن السؤال أى التسول فقال لهم :

«من قعد فى خانقاه فقد سأل ، ومن لبس مرقعة فقد سأل ، ومن لبس سبحة فقد سأل، ومن فتح مصحفا فى مسجد فقد سأل ».

وهؤلاء السائلون ليسوا من التصوف فى شىء، بل ليسوا من الإسلام فى شىء، فإنه دين عمل واجتهاد وسعى فى مناكب الأرض، قال تعالى «وامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

ويحكى القبارى عن نفسه أنه قد فكر ذات يوم فى التخلى عن الزرع، وترك العمل فى البستان، ليعتزل فى الجبل ، حيث يتبنى لنفسه مسجدا فى أعلاه بعيدا عن الناس، وحسبه شبعة من شعير فى كل يوم تقيم صلبه، فبحث عن تجار الشعير فوجدهم غائبين ، مما جعله يعدل عن شرائه، والإمات جوعا، وانطبقت عليه الآية الكريمة «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » قال :

«فصدنى ذلك عن شرائه، وكان لى فى هذا الموضع رزق مقسوم».

تلك إذن هى حصيلة التجربة الوجدانية التى عاناها القبارى ، وهو حائر ، فى فترة من القلق التى طالما حاقت بالمفكرين والفلاسفة كالغزالى الذى اهتدى إلى نور

اليقين فكتب « المنقذ من الضلال » وأخيرا ، وصل القبارى إلى القرار الحكيم المتمشى مع العقل والفطرة فقال :

« لا أذم دنيا تعين على الدين ، يعنى على عدم الحاجة إلى الخلق ، الموت ولا الحاجة إليهم »

وعودته إذن إلى صوت العقل كانت بعد تفكر وتدبر فالعمل فى الحياة ، يعينه على إقامة الدين ، ويغنيه فى الوقت نفسه عن الناس ، وكلاهما من مظاهر عزة الإنسان فى المجتمع ، بل من مظاهر شعوره بقيمته هو ، وإلا فهو الذل الذى لابعده ، الذل فى احتياجه إلى الناس ، أعطوه أو منعوه ، الذل الذى هو الموت الأبدى ، أو كما قال وصدق فيما قال :

« الموت ولا الحاجة إليهم »

العزلة والوحدة:

ثمت ظاهرة جديرة بالبحث والتعليق ، نلمسها فى حياة القبارى ، تلك هى إيثاره العزلة والتفرد والوحدة ، صحيح أن كثيرا من الفلاسفة ، والغالبية العظمى من أهل التصوف ، كانوا يفضلون الانعزال والانفراد عن الناس على الاختلاط بهم والمشاركة فى أحوالهم الدينية والدنيوية .

والظروف الخاصة والعامة التى أحاطت بالقبارى كانت تهىء له العزلة ، سواء فى شبابه أو شيخوخته ، وفى بستانه الشرقى أو بستانه الغربى ، وقد عرفنا أن حرمانه من ثلاث حواس كان له أبلغ الأثر فى البعد عن المجتمع ، فكان يحضر الدرس مع زملائه فى الصبا ، ثم يعيد أحدهم ما قال المدرس ، فلما نهره زميل له عكف على البكاء والحسرة فى حجرة خربة من داره ، وأخذ يشكو إلى الله ماهو فيه من البلاء ، كما

أنه فقد الأخ والأب والأم والزوجة والابن – فلم يعد له من أنيس فى وحشة الحياة – وفر بعفة نفسه من منطقة الرمل – حيث كثر فيها وجود الإفرنج بنسائهم للنزهة ولاسيما فى الربيع – إلى غرب المدينة وهو يومئذ قفر موحش، حيث الجبل والصحراء والدير القديم المنهدم، والقصر الأثرى الخرب، وهناك طابت له الإقامة، وإن كان كثيرا ما يخرج قبل الفجر إلى البحر: يتأمل ويتفكر، وينسى نفسه، وكأنه مجذوب من غير إرادة إلى غير غاية، ثم يعود ليلقى هذه القلة من زواره فى البستان الذى ذاع صيته، وشاع أمره عند الخاص والعام .

يقول القبارى: «وزنت الأحوال بميزان الاعتبار، فوجدتها لا تصح إلا بالعزلة، والعزلة لا تصح إلا بقطع الطمع، والطمع على ثلاثة أوجه: طمع فى أموالهم، وطمع فى إقبالهم وطمع فى الارتفاع بينهم، والأول والثانى ظاهران للخلق، والثالث لا يطلع عليه إلا الله تعالى، ولكن من رأيناه سالما من الأول والثانى حسنا به الظن، ورجونا له السلامة من الثالث، ومن رأيناه واقعا فى الأول والثانى أسأنا به الظن، وعرفنا أنه واقع فى الثالث .

هذه هى نظرية العزلة عند القبارى، وتلك هى حدودها وأبعادها وارتباطاتها بالطمع، فيما عند الناس من أموال، وفى إقبالهم عليه والترفع بمستواه الفكرى عن مستوياتهم .

ولقد ملكت عليه هذه العزلة أقطار نفسه، فذهب به الخيال كل مذهب، حتى لقد تمنى أن يكون وحيداً فى مماته، كما كان وحيداً فى حياته، وكأنه أبوذر الغفارى: عاش وحده، ومات وحده، وربما يبعثه الله وحده أيضا.

يقول القبارى الذى لم يلجأ إلى صومعته نائية ولكن إختار لنفسه بستانا يزرعه بيده :

« علم الله منى أننى أوثر الوحدة فى الحياة وبعد الممات ، وألا يبتدع أحدلى ولو كان الشرع يسوغ أو كان القدر يفرض حكم النفوس لأربابها لما قدمت أمرآ على الخروج من هذه الأسباب على الفور والتوجه إلى هذا البحر،على مسيرة يوم من العمران وأن أغتسل فى البحر للموت وألتف فى عباءة ، وأعمد إلى مغارة من تلك المغارات، فأدخلها وأصلى ركعتين، وأمتد للموت، لاأحتاج فى إخراجها إلى واسطة ، ولكن أبقى فى هذه الأسباب إلى أن يأتى الوقت المعلوم » .

العزلة بعدالحياة :

لقدكان القبارى يريد أن يبعد ـ ما أمكنه البعد ـ عن الناس فى الحياة الدنيا، وكان يريد أن يكون قبره أبعد من بستانه البعيد عن العمران ، حتى تتوفر له كل أسباب الوحدة ، ولكنه تراجع عما كان ينتويه ، لأنه عرف أن الناس بعد موته سيعرفون قدره ويزورون قبره ، مهما بعدت المسافة ، لأن زيارة القبور عندهم مستحبة، يتقربون بها إلى الله وفى ذلك يقول ابن المنير:

«وكان غرضه فى إبعاد قبره وإهماله أن تستمر له الوحدة (أى بعد الموت) ولكنه بعد ذلك كان متشرعا متيقظا ، يعلم أن زيارة القبور معتادة لا ينفك الناس عن كونها قربة ، وكان لا يتعرض فى الوصية بشىء، بعد أن يغيب فى الحفرة التى عينها ، ويرى أن الحى هو الذى يتقلد أمر الميت ».

ولو كان القبارى يملك من أمر نفسه شيئا ماسمح بإقامة ضريح له، ومسجد صار يحمل اسمه ، فقد كان يرغب صادقا فى أن يكون قبره مهملا ، حتى لا يزوره الناس

ولا يقلقوا راحته ، ويعكروا عليه وحدته وهو فى عالم الأموات .

هكذا آثر القبارى الوحدة فى بستانه ، والعزلة حتى بقبره وكان يود - لو كان ذلك فى مقدوره - أن يكون هذا القبر مهملا لا يعرفه ولا يزوره أحد ، ليكون مغمورا لا يزعج الأحياء صفوه ، وهو فى العالم الآخر ، وقد ترك الدنيا بما فيها ومن فيها ، ماله منها غير عمل صالح يلقى به ربه ، أو صدقة جارية ينتفع بها ، أو دعاء صالح من تلميذ وفى ، طالما ليس له عقب من صلبه ، لأنه لم يتزوج .

القبارى .. ومشاكل المجتمع

ومع ذلك فإن القبارى قد أسهم إسهاما عمليا فى حل مشاكل المجتمع الذى عاش فيه لم يمنعه من ذلك حبه للخلوة والعزلة، وسبحاته فى ملكوت الله ،حيث السماء والبحر والجبل والصحراء ، فى بلد صفـــا هواؤه كالإسكندرية ، نعم إنه كان يبدى رأيه فيما يحل ويحرم فى الحياة ، ويبدى رأيه للسلطان لتعزيز الإسكندرية ، وإصلاح حصونها ، وتعمير أسوارها ، وهو بذلك يشترك فى العمل السياسى على أعلى مستوى يخص الحاكم، وهو فى الوقت نفسه شأن من شئون الدين الذى لا يفرق بين مطالبه ومطالب الدنيا .

وليس أدل على العمل الإيجابى الذى كان يقوم به القبارى ، فى عصره وفى بيئته فى المحيط السياسى انتقاده الملوك والسلاطين فى تسخيرهم العامة عند تطهير خليج الإسكندرية بكل ما أوتى من حرية وصراحة ، فإن سمعوا له سلموا من لسانه وإلا هددهما بالهجرة من البلاد فراراً بدينه ، وعملا بما فرضه عليه كما رأينا فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة .

كما أنه لم يتخلف عن الإسهام في العمل الاجتماعي أي في انتقاد العادات والتقاليد الشائعة مادامت لا تتمشى مع الشرع ، فمثلا كان له رأى صريح في ، ليمة الزواج .

كان من الشائع في عصره أن ولي المرأة هو الذي عليه الذبيحة مع أن السنة أن تكون على الزوج، وكان الشائع أن يطعموا في ولائم الزواج الأغنياء دون الفقراء ويأخذ الداعي المكافأة ' (وهي المسماة بالنقطة في عصرنا الحاضر) على إطعام الأغنياء، وقد يتنازعون عليها، ويصل النزاع إلى ساحة القضاء إذا قصروا في أدائها مع أن السنة أن تكون وليمة الزواج بعد تمامه لا قبله ، وأن يكون القصد منها هو إعلان النكاح وإظهاره ، وإطعام من يرجى الخير بإطعامه ، من غير نظر إلى غناه ومكانته، ومن السنة أن يراعى فيها الاقتصاد، وقد جرى العرف على أن يكون الإسراف فيها مفخرة وليس هذا من السنة .

وفي ذات مرة ، مر القباري بجار له يبيع البلح في السوق ، وكان مشهورا بالكرم، فلما أبصر به قدم له رطبة استحسنها فرفض القباري، ولكن الجار الكريم ألح وألح فما زاده ذلك إلا إصرارا على الرفض، فحلف ألا يأكل له شيئا أبدا، وهنا خفف القباري من موقفه ، وقبل الهدية مرغما ، أما الجار فقد صار يأسف على يمينه' كلما رأى الناس يفرحون بأخذ ما يعطيهم القباري على سبيل البركة.

وقد رأينا أن القباري قد تخلص من هؤلاء فأعطاهم درسا قاسيا حتى لا يتوكلوا ' اعتمادا على (البركة) فامتنع عن زرع الفول، واستبدل به الشعير، وما لبث الناس أن نسوا الفول الذي كانوا يتبركون به .

ولو أخذ القباري يعظ الناس ويرشدهم إلى العواقب الوخيمة المترتبة على طلب البركة، والقسم باليمين الغليظة، لما وصل إلى تلك النتيجة الحادثة في توجيه الجماهير

وإرشادهم إلى التخلص من العادات والتقاليد غير المستحبة .

وعلى ذلك ينتقد القبارى ماتجرى عليه العادات والتقاليد فى أمر وليمة الزواج فى عصره , ويقيسها بمقياس الفقيه العالم العامل ، الآمر بالمعروف الناهى عن عن المنكر ، لايخشى فى الحق لومة لائم، ويقول:

« ما لهذه الوليمة من السنة نصيب » .

بين العبادات والمعاملات :

فإذا كانت أمور الدين كما نعلم موزعة بين عبادات ومعـاملات ، فقد جمع القبـــارى بينهما : ووفق بين مطالبها ، بإنصاف واعتدال ، فاختار العزلة عن المجتمع فيما يتعلق بالعبادة حتى يتمكن من إقامتها على الوجه الصحيح فيما بينهوبين ربه، ولاداعى للتظاهر بها أمام الخلق ، تحرزا من الرياء ، ومع ذلك لم يكن فى عباداته متطرفا كل التطرف ، كما جرى لأهل التصوف ، بل كان يتوخى الشرع، دون توغل فى مقاماتهم وأحوالهم ، وكان عمله فى البستان نوعا من العبادة ، إن لم يكن فى عبـــاداته متطرفا كل التطرف ، كما جرى لأهل التصوف ، بل كان يتوخى الشرع دون توغل فى مقاماتهم وأحوالهم ، وكان عمله فى البستان نوعا من العبادة إن لم يكن جهادا فى سبيل الله، وأنعم بالعمل الدنيوى ، إذا كان يعين على إقامة الدين .

أما الجانب الإيجابى حتما فى فلسفة القبارى، فيتلخص فى الخروج إلى المجتمع برأيه، القائم على الشرع لإنكار الباطل ، وإقامة المعوج، ولإرشاد العام والخاص، وتغيير العادة بما يفرضه الدين الحنيف بالحسنى والمعروف ، بغية الخير والحق، وذلك ميدان (المعاملة) ، معاملة المجتمع الذى يعيش فيه .

حقا إن الخروج من البستان إلى ساحات المساجد للجهر بالرأى أجدر وأولى من إعلانه فى نطاق ضيق ، لم يتجاوز اثنين هما القبارى ومحدثه ، ولكن القبارى - شاء أو لم يشأ - قد أدى واجبه فى هذا المجال، على قدر ما أتاحت له ظروفه، فإذا قلنا إنه لم يكن إيجابيا على طول الخط ، فلنقل أيضا إنه لم يكن سلبيا على طول الخط .

كرامات القبارى

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

كان لهذه الآية الكريمة تأثيرها فى نفوس الأتقياء الذين صفت نفوسهم لله ، ولكن شقة الخلاف اتسعت بين المفكرين حول حقيقة (الولى) وكان لكل تقى جهاده فى الوصول إلى درجة الولاية .

وقد سمع الكثيرون عن الكرامات التى خص الله بها عباده الذين اصطفى ، والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وما كانت الكرامة يوما إلا ثمرة لجهاد النفس وصفائها مع الله ، يمنحها من يشاء من أوليائه تكريما لهم ولا كراما لغيرهم ممن هم دونهم ، حتى يقتدى هؤلاء بأولئك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

والكرامة خارقة للعادة ولكن بدرجة أقل من المعجزة التى خص الله بها أنبياءه ورسله الأكرمين ، وقلما كان النبى أو الرسول يبنى عليها ، تواضعا لله ، وخوفا من جبروته سبحانه ، حتى لا يكون أقل خطأ منه سببا فى الحرمان منها ، ثم يهون بعدها الولى على نفسه وعلى الناس .

وكان الشيخ القبارى من غير شك وليا من أولياء الله الصالحين ، وهبه الله كرامته منذ صباه ، فقد صنعه سبحانه على عينه ، ولطف به فيما جرت به المقادير ،

يقول ابن المنير إنه كان لا يبنى على الكرامة ، ولا يعتمد على « الخارق » ، وتعليل ذلك نسمعه من القبارى نفسه حيث يقول :

« ربما لا يعود الخارق ، ولا تتكرر الكرامة فيعرض نفسه للهوان »

وعلى طريقة الفلاسفة جرى القبارى فى تعريف كل شيء ، حتى لا يسوء الفهم ، ومن ذلك تعريفه للكرامة فهو يضع تعريفا لها فيقول «الخارق الذى لا يتعرض العبد لكونه ، فإن تعرض لكونه بأدنى سبب سقط وكان غرة لا عزة ، ومحنة لا كرامة» . وهذا كلام بسيط مفهوم لا يحتاج إلى تعمق ، لأنه صادر من وجدان رجل عاقل يخاف ربه ويعمل كما يعمل العامل الضعيف لليوم ولما بعد اليوم .

ومن كرامات القبارى أن الله تعالى جعله مستجاب الدعاء منذ صباه ، فقد عرفنا أنه دعا على زميله فى الحلقة لأنه ضن عليه بإعادة الدرس عليه فاستجاب الله له ، وظل يدعو لأهل الخير فيستجيب الله لدعائه ، ثم عاد فعدل عن الدعاء للناس خوفا من الفتنة ، وتحرزا من الوقوع فيما هو حرام .

وحدث مرة أن وجد الناس رجلا مقتولا فى الجهة التى يقيم بها ، ولم يعرف قاتله ، فانتشر جنود الوالى فى المنطقة وألقوا القبض على الجيران ، وكتفوهم بالحبال وكان منهم القبارى ، فانحل القيد عنه ، فقال للجنود : «ما ربطونى جيدا» فأعادوا قيده بإحكام وتعجبوا ، كيف يدل على نفسه متهم بجريمة قتل ، ولم يفلت إذ واتته فرصة الهرب ثم مشى خطوات عاد بعدها يقول للجنود : أعيدوا الرباط جيداً فوجدوه محلولا ، ولم يساورهم الشك فى حاله ، وتلفت الجيران وهم فى القيود وقالوا للجنود : « إن هذا الشاب صالح معروف عندنا بالخير » فذهبوا إلى نائب الإسكندرية وأعلموه بما جرى من القبارى الشاب ، فجاء النائب ،

واعتذر له وفك عنه القيود ، فما كان من القبارى إلا أن شفع فى جيرانه المتهمين، فأطلق سراحهم جميعا من أجله .

وسبق أن رأينا كيف أعمى الله عيون اللصوص فى ضوء القمر، ولم يستطيعوا سرقه العنب من بستانه ، وأدركوا أنهم إنما يسرقون من (غيط القبـــارى) الرجل الصالح .

وقد رأينا أيضا كيف أنه لما غاب طويلا عن داره، وجاء جندى يدق على بابه فإذا بامرأة من الجن خرجت بكرامة ـ القبـارى ـ لتمنع كسر البـاب من كثرة الدق عليـه .

وقد نجاه الله عدة مرات من الثعابين والحيات ، فقد عزم عليهـا ، وقلبـه مطمئن بالإيمان ، فصرفها الله عنه ولم تعد ، ونجا من الهلاك،كما رأينا كيف أنجاه اللهمن السيف الواقع على ناقته ، وهو فى الحج فنجا، وقد ظن أنهميت ولامحالة، فالتفت إلى رجل كان معه فى الحج من أهل الإسكندريه وقال له :

«إذا وصلت إنشاء الله فأعلم الحاكم أنى فى الحياة، وأوصه عنى وليثبت إذا بلغه خبر وفاتى فإننى أرجو العافية والعودة، وربما أسبقك إلى الإسكندرية ، إن شاء الله » .

هكذا سبق بها لسانه من غير وعى ، وشاء الله أن يبرأ القبارى من مرضه ، وأن يعود من الحج إلى الإسكندرية، قبل الرجل، وكان أخوه قد زعم أنه مات، وطالب بميراثه، وأراد الله أن يموت الأخ ليرثه القبارى من بعده .

ومن كرامات القبارى أيضا تلك القصة التى سمعها السلطان قايتباى فى المدنية المنورة من خادم المسجد النبوى ، وخلاصتها أن القبـارى بعد موته كان يأتى

كل ليلة ليقرأ صحيح البخارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أتمه .

تلك هى بعض الامتيازات أو الكرامات التى خص الله بها الولى الصالح والشيخ الزاهد ، والفقيه العابد ، صاحب العزة والكرامة ، الشيخ محمد أبا القاسم ابن منصور بن يحيى القبارى المالكى المذهب، السكندرى النشأة والإقامة والوفاة، رضى الله عنه وأرضاه ، وأسكنه فسيح جناته .

الخاتمة

أهم المراجع

١ - موطأ الإمام مالك : الإمام مالك (-١٣٢هـ)

٢ - تاريخ بغداد : ابن الخطيب البغدادى (-٤٦٣هـ)

٣ - معجم السفر (مخطوط): السلفى (-٥٧٦هـ)

٤ - صفوة الصفوة : ابن الجوزى (-٥٩٧ هـ)

٥ - تاريخ الكامل : ابن الأثير (-٦٣٠هـ)

٦ - رحلة ابن جبير: ابن جبير (-٦١٤هـ)

٧ - مرآة الزمان فى وفيات الفضلاء والأعيان: سبط ابن الجوزى (-٦٥٤هـ)

٨ - التكملة لوفيات النقلة (مخطوط): المنذرى (-٦٥٦هـ)

٩ - التكملة لكتاب الصلة : ابن الأبار (-٦٥٩هـ)

١٠- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : أبو شامة الدمشقى (-٦٦٥هـ)

١١- الذيل على الروضتين « « : أبو شامة الدمشقى

١٢- المآثر السنية والمفاخر الرضية (مخطوط) : الحسن بن عتيق

١٣- وفيات الأعيان : ابن خلكان (-٦٨١هـ)

١٤- مقامات القبارى (مخطوط) : ناصر الدين بن المنير (-٦٨٣هـ)

١٥- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ابن واصل (-٦٩٧هـ)

١٦- الطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن : ابن عطاء الله السكندرى (٧٠٩هـ)

١٧- دول الإسلام : الذهبى (-٧٤٨هـ)

١٨- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: اليافعى (-٧٦٤هـ)

١٩ ـ أعيان العصر وأعوان النصر (مخطوط) : الصفدى (-٧٦٤هـ)

٢٠ ـ فوات الوفيات: الكتبى (-٧٦٤هـ)

٢١ ـ البداية والنهاية: ابن كثير (-٧٧٤هـ)

٢٢ ـ تاريخ علماء بغداد : ابن رافع السلامى (-٧٧٤هـ)

٢٣ ـ الإلمام والإعلام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية وعودتها إلى حالتها المرضية (مخطوط): النويرى السكندرى (-٧٧٥هـ)

٢٤ ـ الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب : ابن فرحون (-٧٩٩هـ)

٢٥ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : القلقشندى (-٨٢١هـ)

٢٦ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزى (-٨٤٥هـ)

٢٧ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزى (-٨٤٥هـ)

٢٨ ـ زبدة كشف الممالك : لغرس الدين خليل (-٨٧٣هـ)

٢٩ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى: ابن تغرى بردى (-٨٧٤هـ)

٣٠ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ابن تغرى بردى (-٨٧٤هـ)

٣١ ـ دستور الإعلام بمعارف الأعلام (مخطوط) : ابن عزم (-٨٩١هـ)

٣٢ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة: السيوطى (-٩١١هـ)

٣٣ ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : السيوطى (-٩١١هـ)

٣٤ ـ فضل ثغر الإسكندرية (مخطوط): السيوطى (-٩١١هـ)

٣٥ طبقات المفسرين (مخطوط) : الداودى (- ٩٤١ هـ)

٣٦ ـ الطبقات الكبرى : الشعرانى (-٩٧٣هـ)

٣٧ ـ درة الحجال فى غرة أسماء الرجال : ابن القاضى (-١٠٢٣هـ)

٣٨ ـ الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية (الطبقات الكبرى): المناوى (-١٠٣١هـ)

٣٩ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج : التنبكتى (-١٠٣٢هـ)

٤٠ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : المقرى (-١٠٤١هـ)

٤١ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : ابن العماد (-١٠٨٩هـ)

٤٢ - تاج العروس فى شرح القاموس : المرتضى الزبيدى (-١٢٠٥هـ)

٤٣ - إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون : إسماعيل البغدادى (-١٣٣٩هـ)

٤٤ - تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى: الدكتور جمال الدين الشيال (-١٣٨٧هـ)

٤٥ - أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى: الدكتور جمال الدين الشيال (-١٣٨٧هـ)

٤٦ - تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى: د. السيد عبد العزيز سالم

٤٧ - اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة: محمد البشير ظافر الأزهرى

٤٨ - الفتح المبين فى طبقات الأصوليين . عبد الله المراغى

٤٩ - الوجه الصحيح فى ختم الصحيح : ابن علان

٥٠ - القاموس المحيط

٥١ - الإسكندرية القديمة (بالفرنسية + الترجمة العربية) : الفلكى (-١٨٨٥م)

٥٢ - لسان العرب

٥٣ - الأعلام : الزركلى

٥٤ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة

٥٥ - معجم المطبوعات العربية والمعربة : يوسف سركيس

٥٦ - الإمام أبو العباس المرسى : محمد محمود زيتون

٥٧ - Botti: Plan de la Ville d'Alexandrie à l'époque ptolemaiqne

وضعه سنة ١٨٩٨

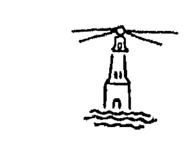
القبارى

زاهد الإسكندرية

طلع القرن السابع الهجرى، والقبارى صبى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، فقد ولد قبل وفاة صلاح الدين الأيوبى بعامين اثنين، وقد كان هذا القرن حافلا بجلائل الأعمال، نابضاً بحيوية فكرية لم يُعرف لها مثيل فى تاريخ ثقافة الإسلام وحضارته، ولقد اشترك «القبارى» فى صنعها وصوغها مع عدد ضخم من العلماء فى الشرق والغرب على السواء، على الرغم من بعد الشقة وصعوبة الاتصال واللقاء.

ولقد كتب عنه أبو شامة فى كتابه «الذيل على الروضتين» يقول: إن خطيب جامع دمشق صلى عليه بالناس صلاة الجنازة عقب صلاة الجمعة يوم السابع من رمضان ٦٦٢ هـ، أى بعد وفاته بشهر، وأرجع ذلك إلى ما اشتهر به من ورع وزهد.

ورجل كالقبارى يموت فى الإسكندرية، ويصلون عليه فى دمشق، ويتحدث عنه الأمراء والولاة فى مصر والشام، ويتبركون به، إعجاباً به وتعجباً من أحواله... لاشك أنه كان من العظمة والشهرة بحيث كان موضع احترام علماء عصره، واهتمام مؤرخيْن كبيرين كأبى شامة، وابن واصل اللذين عنيا كل العناية بتاريخ مصر والشام فى القرن السابع الهجرى.



دار المعارف بمصر